قصص

ورد اليتامى

سالم الحميدي



إهــــــداء ٢٠١٤

الاستاذ الدكتور خالد عزب

جمهورية مصر العربية

وردُ اليتامى

وردُ اليتامى

المؤلف: سالم بن عبدالله الحميدي

(قاص من سلطنة عمان)

الطبعة الأولى: 2013 (مسقط)

الناشر:



بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان - مسقط)

للتواصل:

alghshamoman@gmail.com

هاتف: 24398889 - 99260386

ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320

www.altakween.com

تصميم الغلاف :

أحلام بنت محمد الرحبي

رقم الإيداع 323/ 2013

وردُ اليتامى

سالم بن عبدالله الحميدي

ورد اليتامى

على عَجَلٍ وهي تشرع في الخروج من بيت جارتها - صباحا - هَمَسَتْ في أذن الجارة الطيبة برصانة وكأنها تتنبأ: أختي الشيمة ضميه!

كانت قد دثرت الذهب ذا الأربعة والعشرين قيراطا ملاصقا لقلبها..، الكنز الذي لم تحلم بلمس مثله قط، والذي جلبه معرس البنت الكبرى نام طوال تلك الليلة في حضنها.. خبأته كطفل صغير عن زوجها الذي يؤوب آخر الليل مترنحا، ويبحث في أطراف البيت عن كل بيسة شاردة..، تعلمُ أنه سينبش في كل شبر داخل البيت الشعبي، ويجوس المسافات والأشياء كلها، ومن ثم يتكور كومة واحدة ساقطا بلا حراك بالقرب من جسدها...

ردتْ عليها الجارة الطيبة بابتسامة كبيرة حانية: أختي! ..، لا تخافي..، لن يعرف بمكانه أحد!

انطلقتْ قاطعة الشوارع الداخلية مهرولة باتجاه الشارع العام حيث تتقاطر الشاحنات الضخمة، وتمرق السيارات الصغيرة بانصاف مجانين ومهووسين..، فكرتْ: اليوم الأخير من الشهر فرصة مناسبة لصرف المعونة الاجتماعية ..، سأشتري هدية لشمّوس بمناسبة زواجها، وسأشتري ملابس وأفصلها لميمونة وجميلة ونادية!! ..، فكرتْ أن مبلغ الاعانة لن يفي بالغرض: ماذا سأشتري لحسين الذي ولد معوقًا..، ولسهيم الذي ذهب إلى الصف الأول الاعدادي بدشداشة الصف السادس؟؟..، سهيم

النجيب الوحيد الذي لم يتأخر في دراسته كبقية اخوته قنوع بطبعه ولكنه حساس لدرجة تبعث الريبة في صدر أمه (ورده)!...

فكرت وردة في أن تأخذ قطعة من ذهب العروس شموس وتبيعها..، ربما أن قطعة واحدة تكفي لشراء ما يناسب فرحة لم تعانق البيت الشعبي الذي وهبته الحكومة لهم بعد الانتقال من الحارة التي ولدت فيها ودفنت فيها الأم والأب وطفلين أو ثلاثة جاءوا إلى هذه الدنيا بدون صراخ الإنسان الأول وصخبه رافضين حتى أن يروا هذه الدنيا بعيونهم الصغيرة التي هبطت من رحم التكوين مغمضة!...

هي لا تتذكر منذ متى سكنت تلك الحارة القديمة لكن كل ما تعرفه أن اجدادها سكنوا المنطقة منذ عشرات السنين وبعد عقود قليلة جاء المشروع الضخم للحي التجاري الساحلي..، قيل لهم أنهم سينقلون إلى منطقة جيدة، وأشيع بأنهم سيعوضون بمبالغ خيالية من الريالات، وبعيد ذلك اصطفت الآلات الضخمة ككائنات خرافية ترفع خراطيمها وتُعْمِل معاولها، وكان على وردة الرحيل مع أسرتها الكبيرة بدون أن تلتفت إلى الخلف أو تفكر في قبور الأحبة الذين طوتهم ذاكرتها كما طوت الحارة القديمة التي نشأت فيها حيث كان كلُّ شيء بسؤاله الأول..، وهاجسه الأول..، وروحه الأولى... اليوم بالذات يعبر شريط ذكرياتها لمرابعها الأولى ولا تدري سببًا لذلك!...

على عجل دست المبلغ الزهيد – الذي استلمته من المحاسب - في جيب دشداشتها، وفكرت في العودة سريعا حيث موعد طبخ الغداء..، وقفت قبالة الشارع السريع، ولجت أول حافلة صغيرة..، فكرت في الجارة الطيبة التي لولاها لما تحملت العيش بعدُ..، فمشاكل الأولاد

والزوج وقوائم لا تنته من المطالب والمطالبات..، لكن الجارة الطيبة صدر حنون ومتسع ورقيق يواسي وردة في نوازل هذا الدهر بكلمات رقيقة وابتسامات طيبة فكرت أن تقدم لها هدية صغيرة عندما ستبيع قطعة من ذهب العروس...

اختضت رأسها بغتة. اختلطت العربة بركابها ولم تعد تتذكر إلا "الصوغ" الذي سلمته للجارة الطيبة..، الفا ريال لم تحلم بلمسها من قبل..، كانت شمس الظهيرة تصهر رأسها..، الفت نفسها على أسفلت الشارع السريع ممددة..، تحسست جروحها ومسدت بيدها المرتعشة على المبلغ الزهيد في مخبئه..، تبرع سائق أجرة لانقاذ بعض الأحياء الجرحى وانطلقت عجلات سيارته تصهل باتجاه المستشفى الجامعي القريب..، زاد من سرعته آملا في الأجر وانقاذ الأرواح التي تتعذب لكنه لم يستطع تفادي الاصطدام بشاحنة خضار قطعت الشارع...

عبرتْ سيارة الاسعاف بجثة وردة الشوارع الداخلية للحارة..، توقفت أمام بيت بسيط تجمع حوله الخلق..، أنزل الجسد الذي استكان عن تطوافه أخيرا، وعلت الأصوات بالعويل...

تقدم رجل خمسيني يترنح باتجاه الجثمان..، فتش صرة الملابس وأخرج مبلغ أربعين ريالا وصرخ بحرقه.. الذهب!..، لقد سرقوا الذهب!..، أين الذهب؟..، وكان ثمة امرأة في الحلقة المتجمعة تبكي بحرقة وتنظر المشهد من طرف خفي...

حمامةٌ بيضاء

يعدها مرة أخيرة كل مساء: ثلاث وعشرون حمامة وادعة تتوزع ألوانها بين خليط من اللونين الأبيض والأسود.، ليس فيها أسود مدلهم أو أبيض صاف عدا واحدة صافية البياض كندفة ثلج أسماها (اللول) كانت جميلة السرب.، قال : سأجد لها وليفًا أبيض يشبهها تمامًا لتكون سلالتهما بيضاء.، الحمام الأبيض رمز السلام!...

يعرف الحمامات جميعًا.، يحفظها عن ظهر قلب وهي تتوزع، إلى السماء، كطلقات طائشة من معقلها على سطح الدار وتتشكل في دائرة العين ثم تعاود الهبوط متهادية على خط الجدار.، وما تكاد تلتقط مناقيرها بعض الحبوب أو قطرات الماء حتى تدور الذكور بصخب وتنتفخ أوداج رقبتها ..، تسحب ذيلها على شاكلة مروحة..، تزحف مروحة الذكر في رقصتها ويهدل صوت الغزل رقيقًا..، تدور الذكور بسرعة ويأتي صوتها فخيمًا..، تنقب (اللول) في أحد جناحيها ويتوقف الذكر الأسود (الدغم) الآتي من بيت الجيران عن الغناء.، تمد اللول منقارها إلى منقاره الذي توقف عن الغناء ليلثمه.، ينفجر مشهدهما الرومانسي على حين ركضة من صاحبها زاعقًا..، هادرًا يفرقهما..، تيممان صوب الأعالي متفرقتين ذات اليمين وذات الشمال لكنهما تلتقيان في نقطة ما من السماء ثم تغيبان في عين الشمس...

يحفظها عن لوح غيب واحدة واحدة رغم تشابه ألوانها واختلاطها ببعضها.. اخترع لبعضها أسماءً من شكلها..، ولبعضها أسماء من لونها..، ولبعضها من حركتها..، ولبعضها من طيرانها..، ومن علاماتها الفارقة..، يركض نحوها فتنفلت إلى الأعالي يصرخ: اذاك (الشمسي روّح فوج)..، تهبط شبه البيضاء التي على رجليها ريش أبيض فيفرح صارخا: (هذيه المْكـُوشه) لا تستطيع الطيران بعيدًا عن عشها وفراخها...

يتسلى بعدها عدة مرات في اليوم لكنه يواظب على عادة عدها: أول الصبح وهي تخرج من أقفاصها خماصـًا واحدة واحدة..، وفي المساء وهي تؤوب بطانًا بالقمح والدال..، يستبقي اللول كآخر الداخلين يتملى لونها كهبة تسقط من الأعالي لكنه – حالما يتذكر - يتجرع غصة: لو يجد لها ذكرًا أبيض يشبهها..، لم يجد بغيته عند أقرانه في الحارة والحارات المجاورة..، ذهب بعيدًا اشترى واحدًا لكنه كان خاملا وقد نقبته اللول..، وصّى على واحد من منطقة أبعد لكنه كان صغيرًا ولم يـُعَـمّـر إزاء صراع الذكور على اللول وجده ميتـًا بعد يومين...

قرّر أن لا يدعها توالف إلا ذكرًا أبيض كقطعة ثلج يشبه شتاءات المدن البعيدة..، يحلم بهما وبفراخهما البيضاء حيث يتناسل عرقهما الأبيض، وتفرّخ صغارا معروفين بالجمال والروعة..، لتغدو السلالة موصوفة في النواحي جميعـًا..، لا شيء للنسبي فقط للجميل المطلق...

عدّها مرة أخيرة هذا المساء أيضـًا: اثنتان وعشرون حمامة وادعة فقط!..، تتوزع ألوانها في أقفاص يزنرها الحديد..، لكن لم تكن (اللول) البيضاء من بينها قط!...

في بعض
ما شتته سيرتهما الأولى

ظلا كمتلازمتين.. ليس بمعنى الليل والنهار مثلا، الظلام والضياء..، ليس بمعنى الليل والظلام، أو النهار والضياء كذلك...

الشاعر والقاص اعتمرا نفس الملزمة.. مضيا بعيدا..، كانا فيما مضى تضمهما نفس القرية..، نشآ صغيرين معا في ذات القرية..، الفارق بينهما سنتان أو ثلاث على الأرجح..، قيل إن القاص أكبرهما بيد أن مجموعة كبيرة من القرويين رجحت أن الشاعر أكبر !...

حين بلغا سن المراهقة التقيا في المدرسة الابتدائية الوحيدة في ذات الصف الوحيد (ملاحظة : حين بدأ التعليم الإلزامي في تلك السنة وافتتحت المدارس الرسمية في أكثر من منطقة كانت سنهما أكبر من طلبة الصف الأول لكنهما لم يتفاجا بذلك : أي بكونهما في نفس الصف أولا وكون الطلبة زملائهما من سن مختلفة في الغالب)..، لم يكونا يدركان ،كذلك، أنهما - شاعر وقاص - اقله تلك السنة ورغم ذلك مضيا بعيدا كمتلازمتين:

كان الشاعر يكتب قصيدة فيأتي الآخر بقصة في الحصة الأسبوعية الوحيدة التالية من التعبير التي يُـدرّسها مصري قاهري يحب أحمد شوقي أكثر من أبي مسلم البهلاني...

هذا أثار حفيظة الشاعر ذات حصة فلم يعد يرى في حصة تعبير الأستاذ القاهري وفي منتصف العام ولسبب لا يعرف حل محله أستاذ زول لا يحب قصص يحيى حقي مما أثار تاليا حفيظة القاص فلم يتزود من شميم تعبير الأستاذ السوداني حتى نهاية العام الدراسي...

على أن زملاءهما تهامسوا أن لا دخل لاختلاف الأذواق في مقاطعة حصة التعبير الأسبوعية وإنما لأنها لا تقيم وزنا ،أصلا، للتعبير ذاته ولم يتقيد الأستاذان واللاحقون من بعدهما بتبيان ما يكتبه الشاعر والقاص...

ورغم ذلك مضيا كمتلازمتين:

هذا يكتب قصيدة فيرد الآخر بقصة..، يكتب الآخر قصة فيرد الأول بقصيدة..، لم تكن كتابتهما تشابهية بمعنى أن يكتب هذا قصيدة في المطر فيأتي الآخر بقصة عن السحاب مثلا..، ولم تكن كتابتهما تضادية بمعنى أن يكتب هذا قصة عن البؤساء فيأتي الآخر بقصيدة عن الأغنياء لكنهما ظلا يكتبان ما استطاعا إلى ذلك سبيلا !...

كما في كتابتهما..، ظلا كمتلازمتين في سيرتهما..، بقيا وفيين لبعضهما..، يمضيان بعيدا في صحبتهما..، القرويون يبصرونهما أيام الجمع من بداية الصبح وحتى بعيد المغرب كما يرونهما في الأيام العادية بعيد العصر وحتى قبيل العشاء الآخر يمضيان جيئة وذهابا في القرية وقد يستندان على ظل الحائط الأخير (لـ خرابة) القرية..، يبحلقان للبعيد..، يكوّنان منظرا متناقضا أو مؤتلفا: كأن يبتسم هذا أو يكشر ذاك أو يبتسمان في ذات الوقت..، كانا متلازمين لا ينقطعان في المخبر والمظهر للقرويين

كلما ذكروهما أو ذكروا أحدهما على الأقل انبعث ذكر الآخر...

بات تلازمهما كاملا في كل شيء تقريبا رغم انه لا يخضع - كما يقول أهل القرية - لتنسيق أو ترتيب مسبق مما أثار في تحصيلة آخر الأمر عريف المركز الجديد الذي بدأ يراقب الظاهرة بكل أناة ودقة لكنه لم يكتشف جديدا عما ذكره أهل القرية عدا أنه تأكد لديه أن المتلازمتين وهما ينفقان كل هذا الوقت لا ينبسان ببنت شفة ولا يتحدثان مطلقا إلى بعضهما البعض.،. يبحلقان للبعيد في شرود قد يمتد طوال الجلسة من الصباح إلى الظهر أو من العصر إلى بعد المغرب تحت حائط الخرابة القديم.،. وبين ساعات تلتقي عيونهما للحظات ثم تفترق وتظل تعبر الكون مبحلقة في تعاقب مستمر...

كانا لا يقولان شيئا : كأن يقول الأول رأيا فيثني عليه الآخر.،. أو يقول الآخر شعرا فيرد عليه الأول بذكر رواية أو راوٍ ما.،. أو يتحدثان في النقد الأموي أو الحديث أو ما شاكلها.،. فقط يظلان يبحلقان إلى البعيد [ربما يحتسيان قهوة تركية بدون سكر ويرقبان ساقا فلبينية هاربة إلى داخل الخرابة من حرارة الصيف].،. كانا لا يقولان شيئا ابدا لساعات طويلة يظلان: يرقبان.،. ويبحلقان.،. يتخيلان.،. وينسجان خيوط الدخان ويفردان.،. ومع التكرار اليومي لعادتهما المستمرة منذ سنوات نسيا فيما ينسى الكاتب لغته...

لكن العريف الأجد (الذي نقل إلى مركز شرطة الخرابة مؤخرا) اشتم! مؤامرة وراء كل هذه الحركات والفوضى العارمة رغم الصمت الممارس من هذين الكاتبين.،. فأمر كوادره فورا بإلقاء القبض عليهما.،.

لكنه اكتشف بعيد ذلك أن عيونهما انطفأ وهجها كما وأنهما أخرسان بالفطرة منذ طفولتهما..، وهذا ما فاته السؤال عنه مما اقتضى على أثره أن يعتذر للقرويين الذين زموا شفاههم شفقة على العريف الشاب...

ورغم ذلك ظلا - كما كانا فيما مضى - كمتلازمتين تحدث صدى في الهدوء والقفر...

ما الذي أحبه..
ما الذي يكرهه؟!

"ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا (٢٥) قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدًا (٢٦)" الكهف

ها أنا منفرد في غرفة شبه دافئة متفردًا بغرائبية الأحداث الأخيرة..، بدت الغرفة ذات الـ٢٫٥ متر × ٥ أمتار أقل إضاءة من المتوسط بقليل عن المعتاد..، وآلت الوانها إلى داكنة لا تساعد كثيرًا على نفاذ ضوء الضحى الصباحي المتوزع بشمس ناعسة لهذا الشتاء الجميل في قرية (الهبوبية)..، الصغيرة، والجميلة، وشبه المنسية، والتي تقع إلى الجنوب من مسقط ...

أفتح كتاب (الموت)! فتنساق أمامي الحياه..، أهرب إلى هذا السِفر القديم فتلاقيني الحياه زاجة بي في هذه المعادلة التي لا أجد منها انعتاقًا..، ولا أجد لها حلا كذلك..، أي طرفين متناقضين ينبعثان مرة واحدة في اللحظة ذاتها: حين أكون متوحدًا مع كتاب الموت تستقبلني الحياة، وحين أحضنها يتراءى الموت بوجهه القادم من مكان قصي على الإدراك لا يمكنني أن أفكر في أحدهما بدون أن ينبعث الآخر هكذا تلقائيًا، بدون استئذان، أو مشورة أحد..، يكفي أن أفكر في أحدهما

لينبعث توأمه أو نقيضه في رأسي: الحياةـ الموت..، الموت ـ الحياه: أي ثنائية هذه التي تعبرني في معادلة جدلية لا تنتهي؟!..،

ها أنا بين دفتي الكتاب..، في نقطة المنتصف تمامًا..، أقف تمامًا في منتصف المعادلة بين سميريّ..، أصيخ السمع إلى الصوت الذي يقترب عادة كلما توحدت في هذه الغرفة المستطيلة..، يهمس في أذني:

كل رحلتك التي قطعتها لا تعد شيئًا بعد هذه النقطة يا راشد بن سعيد..، رحلتك المتوحدة في هذه الحياة وهذا السفر الكبير لا تعد بعد هذه النقطة..، كل شيء بعد هذه الصفحة الصفراء العتيقة سيكون مختلفًا..، نعم نعم هذه الصفحة شبه المهترئة ذاتها والتي تلتصق بين إبهامك الغليظ وسبابتك الطويلة..، هذه الورقة ذاتها التي تبدو بين كماشتي إصبعيك كفراشة رقيقة توشك أن تهرسها..، أوليس من العجيب أن تكون رحلة الحياة كلها مثل فراشة رقيقة تطير مع أدنى نفخة طفل..، أو ليس الأعجب ياراشد أن يكون طرفا المعادلة رهنًا بورقة صفراء شبه مهترئة!؟...

في المنتصف تمامًا إذن ياراشد بن سعيد، وحين نكون في المنتصف، المحدد بخيارين لا أكثر، تكون خياراتنا محدودة، وربما محددة سلفًا في الغالب وكأنك تحشر إلى زاوية واحدة لا مفر فيها من المواجهة!..، منتصف الأشياء يعني الانتقاء بين خيارين في الغالب لا ثالث لهما أضف إلى ذلك أنه لا مفر ولا بد من مجابهة الأمر ومواجهة تحدي تحديد أحد الخيارين..، عليك أن تختار ياراشد: إما قبل وإما بعد هذه الصفحة الصفراء الذابلة من كتاب قديم أكلت بعض جوانب دفتيه الرمة..،عليك أن تختار الآن ياراشد..،

- مالذي عليّ أن أختاره؟

- أنت تعرف!

- ما عدت أعرف شيئاً. فأخبرني أنت..، اخبرني ـ على الأقل ـ بالخيارات الممنوحة لي؟

- العارف لا يعرّف ياراشد!

- لم أعد أعرف: كلما مددت يدي إليهم عبر هذه اللجة لانتشلهم تخطفتني أياديهم محاولة جري إلى القاع..، لم يعد بإمكاني مواصلة هذا بعد..، أبصر عبر هذه الظلمات فأمد يدي بحب إليهم لارتقي بهم درجات إلى النور، ولا يرون إلا الظلمة والوحشة فيجرون يدي المدودة إلى الدرك الاسفل

- هل كانت محاولاتك جادة وحقيقية ياراشد؟!

مازالت الورقة تنتصب بين إصبعي كفخ عصفور..، وأنا أقتعد القرفصاء في غرفة متوسطة الإضاءة بدت الوانها كالحة تشبه كهفًا قديما٢ تعبره الأشباح بظلالها وأصواتها المتباينة كأنه مسرح نو!.

تنامُ إحدى دفتي الكتاب على الجانب الأيمين للمرفع، وتحتل الشمال منه الدفة الأخرى بذات العدد المتساوي من الأوراق أما الورقة الصفراء شبه المهترئة فتنتصب بين إصبعي فاصلة بين الدفتين..، فاصلة بين شيئين: خيارين (موت ـ حياة)..، هل يمكن الذي كنته من قبل هذه الورقة هو الموت؟..، وهل يمكن أن أكونه بعد هذه الورقة هو الموت أيضا؟..، أم أنه العكس: ما كنته في الماضي هو الحياه؟..، وما سأقدم عليه هو الحياة؟..، أو لعلني كنت ميتًا أنهض إلى حياة..، أو حيًا أستقبل الموت؟..، هاهي يدي لا تنفك عن الارتعاش حين أفكر في

أن أفلت الورقة الصفراء شبه المهترئة من بين إصبعي!...

ربما كان عليّ أن أتوقف قبل هذه الورقة..، كان عليّ أن اتساءل: ماالذي أحببته؟ ماالذي أحببته في رحلتي هذه..، وما الذي أحببته في هذا السفر القديم..، لم يعد لدي من إجابة ـ الآن ـ إلا أحد الخيارين..، أصل إلى هذه النقطة فتزيد يميني القابضة على الورقة ارتعاشًا وضوء الغرفة إظلامًا فيما ينكسر ضوء الضحى ويخفت تاركًا الفرصة لصوت غريب آخر يعبرني الآن:

- ماذا عساك أحببت في حياتك وحتى الآن؟

- (ياله من سؤال مراوغ ومباشر .. أقول في نفسي)، وأجيب: أحببت أشياء كثيرة!

- مثلا؟ (يرد الصوت بسخرية)

- أمي !!

- هل أحببت أمك حقًا؟

- (يباغتني السؤال ولسعة السخرية فيه) فأهرب مناورًا: أبي!!

- وهل أحببت أباك حقًا ياراشد؟!

- (تؤذيني صيغة الإنكار والاستفزاز في رد محاوري فأهرب إلى مراوغة جديدة): أحببت الكون .. البشر .. الشجر .. المطر .. الـ.

- (يقاطعني الصوت): أحببت كل هؤلاء إذن؟!

ويضحك..، يضحك الصوت مجددا بسخرية واستهزاء..، أخاف من هذا المحاور العليم الذي يكنس بهجة الأشياء الجميلة قدام طريقي..، ويكتنز السخرية وتعمد إثارتي زارعًا الارتباك في حقول وحشتي و بصوت جهوري أعلى من كل الأصوات يصرخ بحدة: ماذا أحببت ياراشد؟!...

- (وبصوت مرتبك وخائف) أجيب: أحبـ بـ بـ ت: نفسي أولادي، أولادي نـ فـ سـ ي نـ فـ سـ ي...

أقتنع بالإجابة التي عبرتني لتوها.. يهدأ ارتعاش الورقة بين إصبعي، ويعبر الهواء نديًا لطيفًا بين النافذتين، ورويدًا رويدًا تستعيد الغرفة ضوءها المتوسط والوانها الكالحة تبدو داكنة تسمح بالكاد بنفاذ كمية منكسرة من ضوء الضحى المغتسل بشمس تشرين الثاني المنسابة إلى عيون الحقول الناعسة...

***

أووووه! لقد تعبنا حقًا مع هذا الرأس المزعج! (كان صوت شاب نافذ الصبر يخرج من التجمع على شكل دائرة).

قال صوت شيخ عجوز بالغ الدهاء والتجربة والصبر: لم نجرب كل شيء معه بعد!

ماذا!!!!؟ لم نجرب! لقد جربنا كل شيء لم يبق شيء إلا وجربناه معه (قال شاب برم):

لقد جربنا أذيته في كل مكان: في المكتب، في البيت، في الهاتف، في السيارة، في السوق، في المقهى، في كتبه (قال شاب متحمس آخر).

(واستلم متحمس آخر الزمام): بل خرجنا ودخلنا معه، تقلبنا في أوراقه وحاسوبه، جلنا في أنفاسه، هتكنا حرمة سكونه، كنا الريح التي تأتيه من بين يديه ومن خلفه، شككناه في كل شيء حتى أمه وزوجته وأولاده ونفسه.

ورغم ذلك لم يتضعضع.، لم يستسلم...، لم يختر...، لم يسلم الورقة

إلى جهة دون جهة..، مازال يمسك بالورقة بين إصبعيه البغيضين (قال شاب بإنكسار ورأسه مصوب إلى الأرض).

تحرك الرجل الشبحي الضخم بجسده المستدير: حسناً ربما علينا أن نكف الآن..، استلم مساعده على يساره الاذن بالحديث: كل هذه السنوات، وأنتم فاشلون في مهمتكم..، الرجل غير مكترث ابدا..، قاطعه الآخر على اليمين بغضب: ماذا جرى لكم؟..، هل أصبحتم عواجيز كخيول سباق مريضة لا تصلح لها إلا رصاصة الرحمة؟!...

كان النقاش يزيد حدة وغضبا بين أعضاء الدائرة..، لغط لم يعد يعرف فيه المستمع من المتحاور حينها أشار الشبحي للعجوز بالغ الدهاء والتجربة الذي تحدث في البداية: هل تعتقد أننا استنفدنا كل شيء معه وبالتالي فقدنا فرصتنا؟ أم ماذا؟..،

ابتسم الداهية العجوز وقال بابتسامة واثقة: صحيح أننا جربنا كل شيء معه، ولكن هناك شيئاً لم ننتبه له..، نحن ركزنا فقط على ما يحبه الرجل..، أما الآن وصاعدا فسنحاول أن نجعله لا يتوافق مع الأشياء، عليها أن تبدو كارهة له غير متناغمة معه من الأجدى أن يحس بأن كل شيء يكرهه متى ما أحس بهذا فسوف تتولد لديه الكراهية..، الكراهية للأشياء..، والكراهية للمحيطين به..، والكراهية للكون ..، البشر .. الشجر .. المطر ... الكراهية وحدها هي الكفيلة بقلب المعادلة على رأسه وبالتالي سيكره الأشياء جميعها، وسيصل بكراهيته هذه إلى كره الحياة ذاتها، وكره نفسه أيضا، وحينها فقط سيختار أن يسلم الورقة إلى جهة واحدة. جهة واحدة فقط لاغير!...

حين عبر الهواء نديًا لطيفًا بين نافذتي الغرفة المستطيلة سامحا

بتسلل ضوء الضحى ارتخت قبضتي الملتصقة قليلا على الورقة الناعمة..، كنت أفكر بين الماضي والآتي في هذا السفر الجميل:

- الخيارات محددة ومحدودة ياراشد (قال الصوت).

كان عليّ أن أحدد خياراتي أنا الآخر.

لماذا لم يتجاوبوا مع محاولتي المخلصة: هل كانت يدي الممدودة في بحر لجي من الظلمات مرئية لهم، لماذا لم يروا يدي الحانية والصادقة، لماذا لم يقتنعوا بأنني لست ضدهم؟ أم كانت هناك أياد أخرى عابثة في بحر الظلمات؟ لماذا عليّ أنا فقط أن أعاني؟ رغم أنني أعي أية معاناة هي المعرفة بالاشياء..، أشياء قاسية وقطعية أن تعبث بك الظلمة في البدايات الأولى، وأشياء مفزعة ومنفرة أن تعرف أي ظلمة كنت تعيش أيها الرأس المنبت عما حوله وقد عُلِمتَ الأسماء كلها..، وحدك تعود إلى كهف أصحابك مشفقا عليهم من هذه الظلال والضلالة وخائبا تعود منحني الهامة وخائر الهمة..، تطردك القبيلة والأصحاب من كهف الظلمات..، بلسان واحد تنعق:

- من لم يكن معي فهو ضدي!

أي قطعية وحدية لا تقبل الآخر إلا منضوٍ أو عدو؟!

أدرك أن ما مضى مختلف عن القادم..، لكن هل سيكون القادم أشد قسوة وإظلاما أم سيكون ناعمًا وحنوناً كصدر أم..، آآآآه بين هاتين الفاصلتين: المثالية المفرطة في التفاؤل والطيبة حد السذاجة..، وواقعية الحياة الذاهبة بعيدا في القسوة والغيلة هذه الورقة: برزخ من نوع ما لا أدري كنهه تتوقف نتيجته على اختياري أنا: إما أن أفلت الورقة إلى الدفة اليمنى من الكتاب فأكون وإياها جزءا من الماضي:

ماض ممسوح الذاكرة لا يحق لي أن استعيده أو أستنسخه أو تذكره على الأقل في برمجيات رأسي تماما كأي قرص ممغنط مضغوط مثلا، وإما أن أفلتها إلى الجهة اليسرى فتكون قطعة من المستقبل: لا أعلم ما يكون منه ولا يمكنني التنبؤ بما يأتي به لأني لا أدرك ما وراءه حقا..، ولكن أن أبقي هذه الورقة هكذا بين إصبعي أبد الدهر لا تفلتني ولا أفلتها فهذا ما لا يسمح به هنا، ولا يرضى عنه أحد، وحتى أنا نفسي لا يمكنني أن أظل معلقا هكذا بحلم الآتي..، أو وهم الماضي علي أن أقرر الآن، والمسألة مسألة وقت فقط..، علي أن أقرر وعليهم أن يشهدوا على قراري هذا اما أن أظل مُعَلقا ومُعِلقا الآخرين فهو قرار بعيد عن جادة الصواب. صحيح أنني دائم القول: بإمكاننا أن نتشارك الحياه وإن نقتسم فرحتها العابرة وأحزانها المتواصله..، وصحيح أنني مازلت أملك الورقة بين إصبعيّ لكنه لم يعد خيارا هو الآخر كل مافي الأمر أن الخيارين هما: أن أفلتها إلى اليمين، أو أن أفلتها إلى اليسار لكن أن تظل هكذا بين يدي فستبقيني مشدودا إلى غرفتي الموصدة عليّ وحدي مقيداً إلى هذا السفر ـ الذي أعياني ـ النابت فوق المرفع المزركش لا يدخل عندي أحد..، ولا أستطيع الخروج إلى أحد فقط همهمات الأصوات التي تتداخل: أصوات رجال ونساء..، أصوات أطفال وعجزه..، أصوات طيور وحيوانات وهوام وحشرات..، فقط أصوات تصلني..، أصوات الطبيعة تصلني..، فقط أصوات ولا شأن للصورة في عقلي بها..، أصواتهم تصلني فقط وأبقى منشدا إلى جلستي: أتفكر فقط هل هم الحقيقة أم أنا الحقيقة؟! هل هم الأشباح أم أنا الشبح؟ هل هم الأشباح وأنا الحقيقة؟ هل أنا الشبح وهم الحقيقه؟ كان علي وحدي ـ فقط ـ أن أحدد الإجابة، والآخرون ـ في الخارج ـ ينتظرون بين إجابتين. علي أن أفلت الورقة الآن في الحال، وكان لزاما عليّ أن أعرف قبل ذلك: ماالذي أحبه أكثر ...

((*)) 1/ كتاب الموت أحد كتب رائعة الامام الغزالي (احياء علوم الدين).

2/ [توصل أفلاطون إلى نتيجة أن العقل البشري يستطيع الحصول على المعرفة وذلك من خلال المرور بمراحل تعليمية، وقد شرح ذلك بشكل مشوق في قصة سجناء الكهف التالية:

(تخيل أن هنالك كهفا واقعا تحت سطح الأرض، وله ممر طويل يقود إلى الضوء، وبداخله أسرى مكبلون بالسلاسل منذ طفولتهم ورؤوسهم إلى حائط الكهف أمامهم، ومن خلفهم نار مشتعلة يفصلها عنهم طريق يسير عليه أشخاص يتحدثون ويتصرفون بشكل طبيعي والأسرى لا يرون إلا ظلال هؤلاء الأشخاص التي تعكسها النيران على الحائط أمامهم، ولو افترضنا أن حائط الكهف يعكس الصوت فإنهم سيسمعون الأصوات وكأنها صادرة عن الخيالات المنعكسة، وحيث أنهم لا يستطيعون الالتفات إلى الوراء فإن الشيء الوحيد الذي سوف يسمعونه ويرونه هو الخيال أمامهم ولذا فانهم سيتصورون أن الخيال شيء حقيقي ولا سيما أنه لا معرفة لهم بالنار أو الطريق أو الأشخاص أو بما يجري حولهم. الآن لو افترضنا أننا نزعنا القيود عن أحد الأسرى، وأجبرناه على الالتفات للخلف فإن حركات جسده ستسبب له الألم وعيناه سوف تنبهران من ضوء النار ولوقلنا لهذا الفرد أن مايراه الآن هو الشيء الحقيقي وليس الظلال فإنه لن يصدقنا وسوف يريد العودة لجلسته الأصلية في مواجهة الحائط ولو جررناه بالقوة خلال النفق الطويل إلى ضوء الشمس فإن هذه العملية ستكون مؤلمة جدا له وصعبة عليه وحين يصل إلى سطح الأرض فإن ضوء الشمس سوف يبهره ويؤذي عينيه ولكنه بعد مدة سوف يعتاده وسينظر إلى النجوم والأشياء المحيطة به من شجر وجبال وأنهار فاحصا ويتحسس الأشياء وينظر إلى خياله في الماء ويصل إلى نتيجة: أن هذه الأشياء هي الحقيقية وليست الخيالات التي على حائط الكهف، وحين يصل إلى هذه الدرجة من المعرفة فإنه سيأسف لحال رفاقه الأسرى في الكهف وسيعتبر نفسه محظوظا أكثر منهم ولو أعدنا هذا السجين إلى داخل الكهف فإن وضعه سيكون مختلفا ونظرته للخيالات على الحائط لن تعود كما كانت عليه من قبل مما سيجعله مشوشا أمام رفاقه الأسرى الذين سيعتبرون تجربته ضارة وسيلومونه لمغادرة الكهف).

بتصرف بسيط عن كتاب السياسة: نظريات ومفاهيم ـ د محمد سليمان الدجاني، ود منذر سليمان الدجاني ـ دار بالمنو برس/ عمّان.أوستن، ١٩٨٦، ط١، ص٤٧ـ ٤٨]

المشجب!

نبتت الأصابع الخشبية الستة على شاكلة إبهام غليظ على مسافات متساوية في الخشبة الأم المزروعة على علو يقارب المترين بينما كان طول الرجل ما يزيد عن المائة والستين ببضع سنتيمترات وحين لاحظت زوجته ذلك تساءلت:

- هل تعتقد أن ساكني هذا المنزل كانوا طوالا حقا؟!

- وهل تعتقدين أنني أعلم الغيب، أو لعلك تظنين أنني أمتلك رؤية ماضي الآخرين..، رد بتبرم:

- لا طبعا!..، لكن مشجب الملابس وضع على مسافة مرتفعة من طول الإنسان العادي..،

- وهل تحسبين الناس هكذا قصار مثلك؟..، رد بنفاد صبر

ابتسمت زوجته بمكر.. وأضافت بمزاح زاد من غضبه:

- ماشاء الله على طولك الفارع!

تبدلت حال الرجل حين انتقلوا إلى هذا البيت الصغير في حي فقير بحارة شعبية بسيطة قبل أكثر من سبعة أشهر..، هدوء أعصابه الذي كان مضرب المثل تحول إلى تذمر فاحتجاج دائم سرعان ما انطبع كغضب في سلوكه بين فترة وأخرى لكنه في الشهرين الأخيرين تحول إلى طبع يومي متزايد..، فكر الرجل: إنه المشجب!..، حتما لابد أنه المشجب

اللعين هذا الذي يضطر معه للقفز لتعليق الدشداشة حين عودته من العمل أو في الصباح حيث يتجه إليه...

صباح هذا اليوم أمسك بالدشداشة من منتصفها..، وحاول أن يرفعها إلى الأعلى ليفتلها على الإبهام الخشبي المصقول على شاكلة خطاف إلى الأعلى لكن محاولاته ذهبت سدى..، كلما جد في المحاولة زاد التواء عنق الدشداشة وأصبح ظاهرها باطنها حينها نفد صبره..، وبدأ بشدها إلى الأسفل قليلا قليلا ثم بقوة أكبر في كل مرة مع تزايد غضب الرجل بيد أن المشجب، فضلا عن أنه لم يفلت الدشداشة، كان مثبتا بقوة الحديد إلى الجدار..، وباتت الدشداشة على إثر ذلك مثبتة بقوة على الخطاف الخشبي بفضل لوي الرجل المتكرر..، سمعت زوجتة أناته وأنفاسه المتلاحقه فلحقت به إلى داخل الغرفة:

- يارجل هدىء أعصابك!..، ما بال غضبك يزيد كل يوم؟

- أصمتي قليلا ياامرأة دعيني أعالج هذه المصيبة..، ما هذا كلما أحضرت كرسيا أخذه أولادك؟!..،

أحضرتْ له دشداشة جديدة ومكويه، قالت:

- الغضب يسيطر عليك يامروزوق..، وليست العلة في الكرسي أو العلاق...، خذ إلبس هذه...

كان مرزوق برما ذلك الصباح كعادته الجديدة التي تلبسته منذ شهور قليلة وهو يواجه شبح الإحالة للتقاعد فكر الرجل: كل هذا العمر، ومجموعة الصغار الغضين هؤلاء كيف عساني أن أدبر أمرهم بعد؟!...، كبس بقوة على دواسة البنزين وحالما أصبح في منتصف الشارع الرئيسي

كادت أن تطيره سيارة مندفعة بسرعة عالية لولا إنتباه سائقها وفرملته بسرعة بديهية.. تلاسنا ثم صهلت عجلات السيارة مندفعة بسرعة جنونية فيما ظل الرجل يزبد ويرغي: مجانين! مجانين شباب اليوم..، ركب سيارته وانطلق بهدوء تفكر قليلا: لولا ذلك المشجب لما حدث لي هذا.

دلف المكتب حاول تذكر أين وضع الملفات بالأمس..، انتظر زميله مليا وما ان وصل حتى انتهره:

- أنت كل يوم تتأخر غير مكترث بامور المؤسسة، وأوامر المدير، و...

- ما بك يامرزوق! إهدأ قليلا..، استرجع نفسك كي لا تغص علينا، ويرتفع عندك الضغط، أو ينزل عندك السكري لتصاب بجلطة..،

- لا دخل لك بي، وبأمراضي كل ما يجب عليك فعله هو الالتزام القليل من الالتزام يا أيمن وإلا أبلغت عنك المدير..،

- أنت لا تفعلها يا مرزوق ورغم أنك مسؤولي المباشر لكن أخلاقك ليست من هذه الطينه..، أنت طينة طيبة وخلوقة ياعم مرزوق..،

- دعك من الأخلاق الآن، وهذه المقدمات الطللية: أين ملفات مناقصة المشروع البحري لمدينة الشمال؟..،

- لا حول ولا قوة إلا بالله يبدو ياعم مرزوق أن السكري أكل شبكية عينيك أيضا..، ما بك ألا ترى؟!..، هذه الملفات في الدرج العلوي المفتوح واضحة أمامك..، تفضل ياعم مرزوق..، وأرجوك أن تسمح لي بالخروج لأن خطيبتي تنتظرني في السيارة كي أوصلها لتقوم بأداء اختبار الوظيفة الجديدة..، أرجوك..،

سمح له بالخروج..، وراقبه متأففا متبرما: لولا ذلك الشاب المزعج الذي كاد أن يسويني وسيارتي بأرضية الشارع لكنت رأيت هذه الملفات أمام عيني..، أأأأأيه أيه إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور(قال مخاطبا نفسه)...

حمل الملفات التي كانت في الدرجين العلوي والأوسط وأسرع باتجاه مكتب المدير في الطابق الأخير من المبنى حينها رن هاتفه اليدوي:

- نعم!..، ماذا الآن؟..،

- اتصلت مديرة المدرسة وقالت: إن أنمار مريضة..، ويجب أن نذهب لأخذها إلى المستشفى..،

- إذهبي أنت لها..،

- ليس لدي سيارة..، ثم تعال هنا أنا لا أعرف السياقة أنت لم توافق على أن أتعلم..، قاطعها بحدة وغضب: حسن حسن عرفنا هذا الموال الحزين والأسطوانة المشروخة..، خذي سيارة أجرة..،

قاطعته بدورها: ولماذا لا تأتي لإسعاف ابنتك؟!..،

- لأنني مشغول جدا..، هذه الملفات المتكدسة أصبحت أماطل المدير فيها أكثر من شهربسبب مشاكلي الشخصية..، إذهبي أنت..، تصرفي ياامرأة..، ماذا بكم؟ ألا تحسنون التصرف بأنفسكم؟..، هل لا بد أن أدس أنفي في كل صغيرة وكبيرة (كان صوته يزيد حدة وعلوا)..، وبدون أن ينتظر ردها هرس الزر الأحمر للمحمول بضغطة غضبى وطويلة أطفأت ضوءه نهائيا...

هرع لمكتب المدير وهو يفكر: لولا أيمن وهذه المكالمة المزعجة

لما تأخرت عن المدير الآن..، القى تحية عجلى على منسقة مكتب المدير..، وأصبح في الداخل مباشرة مقابل طاولة المدير:

- صباح الخير حضرة المدير..،

- أهلا مرزوق..، ماذا لديك؟..،

- ملف مشروع المدينة الساحلية الشمالية..،

- لا لا هذا الملف ليس مهما..، أحضر لي ملف مشروع مؤسسة الكهرومغناطيسيه في المنطقة الصناعية الغربية الجديدة..،

- لكن عطاءات المشروع لا تزال بعيدة..،

- لقد حصلت بعض المستجدات الجديدة أحضر لي الملف للتدارس..،

بحثَ في مكتبه..، ومكاتب الادارات التابعة لم يجد الملف..، بدأت حالته أكثر عصبية..، وبدأ وجهه في الاحتقان كذلك..، وانعقدت ما بين عينيه ما يشبه حبة لوز..، كان متضايقا ويشعر بانقباض في الصدر، وضيق في النفس حين رن هاتف المكتب كان المدير من الجانب الآخر يوبخه على هذا التأخير في إحضار الملف والاهمال الذي بدأ يلاحظه عليه مؤخرًا، ولأول مرة منذ عملهما بدأ يصرخ في وجه المدير:

- لست أنا..، السبب هم هؤلاء الفاشلون المهملون من الـ....، كان المدير قد أغلق الهاتف، وطلب من منسقته استدعاءه..،

وصل البيت منهكا..، بعيد الساعه الرابعة ظهرا ذلك اليوم..، سألته زوجته لماذا هذا التأخير اليوم..، ثم أضافت: أنمار استدعت حالتها أن تنام في المستشفى لأكثر من ساعتين..، وحين انخفضت درجة حرارتها

سمحوا لنا بالخروج، ومحمد يريد حذاء رياضيا وقميصًا رياضيًا أصفر..، مارأيك لو أشترينا له قميص المنتخب البرازيلي يقولون هو الأشهر في لعبة كرة القدم!..، إيناس مطلوب منها دفتر تفصيل وبحث عن الفنون التقليدية في المنطقة الجنوبية من البلاد..، أمجد طلبوا منه دفتر موسيقى وبحثاً عن سلسلة جبال الحجر..، أما أسعد.....، تركها تكمل القائمة لوحدها..، القى بكامل هيئته الرسمية على السرير حين أفاق كانت الساعة السادسة مساء..، جاءت زوجته مهرولة إليه:

- ما بالك ياأبا حمدان؟..،

كان حزينا ولم يرد عليها..، أنتهكت صمته من جديد بمطالب البيت: أغراض البيت ناقصة نريد خضروات..، وفواكه..، وزيتا..، وحليبا..، و.....

ترك البيت إلى الشاطئ البعيد حيث بدأ ضوء القمر في ليلته الرابعة عشرة من الشهر الهجري يتسلل عبر خط الأفق البحري ليغزل خطا ذهبيا يأتي من مرآفئ قديمة موغلة في الذكرى نسيها الأسلاف..، ابطأ مرزوق من لهاث أفكاره قليلا وبدأت نفسه تهدأ..، بدأ حالما يتذكر: هنا يا مرزوق..، عند هذا الشاطئ كنت تكتب قصيدة الحب والحياه وتبخرها بريحانة القلب مختومة إلى أم حمدان..، قبل سنوات عديدة كانت هي خطيبتك الفتية والناعمة والجميلة والرائعة تستلهم منها جمال الأشياء ومنظر القمر كأنه وجهها مسافر على صفحة الماء منذ الأزل...

جعل يتفكر في الذكريات وكأنها أقرب إليه من حبل الواقع..،

آه حينها قفز الواقع..، من جديد، إلى رأسه ممزقا إنثيال الذكرى

تذكر: هذا اليوم الطويل. الخميس الأكثر طولا وحزنا من باقي الأيام التي مرت عليه..، والمؤلم من صباحه وحتى هذه اللحظة..، قبض قبضة من رمال الشاطىء الناعمة وسولت له نفسه أن يفكر في داخله: لولا أم حمدان لما كنت حزينا وضائعا هكذا..، لا .. لا .. لولا الأولاد لما كنت على حالتي هذه..، لا .. لا .. لولا مُـدّرِسة الأولاد..، لولا مطالبهم..، لا .. إنه المدير..، منسقة المدير..، لا .. إنه أيمن الموظف الكسول والتافه في إدارتي..، لا .. إنه ذلك الشاب الذي كاد أن يسحقني بسيارته "الفورويل" هذا الصباح..، لا ..لا .. لا .. إنه المشجب..، المشجب اللعين والبغيض والبعيد عن متناول يدي..، كان مرزوق يفكر في كل هذه الاحتمالات..، وكانت الأفكار تغزو رأسه بسرعة فائقة ذات اليمين..، وذات الشمال..، وكان غاضبًا جدًا يتذكر...

ما كتبه قاصٌ مغمور

شيّعته، بنظرتها المنكسرة، من على الباب الداخلي حتى توارى ضاربا في الأرض يبتغي أجر صلاة العشاء الآخر.

افرغت ما يزيد بقليل على نصف الكأس من الماء البارد من «الغرشة»، همت بالاستزادة غير ان الصداع الذي عاودها من جديد، منذ الظهيرة، لعاشر مرة لم يفتر بل بدا طويلا على شمسة بنت علي بن حمدون.

ورغم ان النهار مثل اي نهار عادي في مكان عادي جدا الا ان صداع رأسها وضيق صدرها اشعرانها بالانقباض والرغبة المستمرة في القيء دونما تحقق..، لم تشعر بمثل هذا العارض قط في أي من البطون العشرة الذين وزعتهم بالتساوي: على ساق أولى بخمسة ذكور وساق أخيرة بخمسة أقمار كأنهن أمهن الموصوفة بالجمال في الناحية الممتدة من البواطن وحتى ساحل مسقط، مما حدا بزوجها المعلم شنون - والذي وصل الى مسقط في وسط الستينات حيث كانت الحرائق في تلك السنة تندلع في أكثر من مكان..، فما تكاد تنطفىء في جبروه حتى تشتعل من جديد في سداب..، وما يكاد يسيطر عليها هنا حتى تستعر من جديد في كلبوه..، دونما تفسير واضح لها من الاهالي والذين أعيتهم الحيلة لوقفها او تفسيرٍ لاضطرامها وتزوج من شمسة بعد سبع سنوات من سنة الحرائق تلك بعد ان لعب بعقلها الغض غاوي بن سويف بن

حمدون وفر هاربا الى البحرين في خشبة بضائع - ان يوافق على ان تقلب "بيت الضنا" في المستشفى الحكومي الكبير...

بيد أن المعلم شنون، والذي مازال يعلم لغة النصارى التي ابتدأ بها ثروته الهائلة وافتتح لها مدارس ضخمة، لم تستهوه فكرة المباعدة بين الولادات بقدر ما تلمظ بشهوة وهو يتخيلها تريح وتستريح من عناء هذا الانتفاخ البالوني كل سنة ونصف تقريبا آملا في التمتع بشمسة التي تصغره بثلاثة عشر عاما ممنيا نفسه بقضاء ما تبقى له من حياة اسيرا "لشمسوه الحمرا" التي لم تتغير لحمتها الناعمة.. والغضة المنيرة الوجه كفلقة القمر.. والتي بقيت محافظة على توهجها ابدا منذ ان بنى بها...

لابد أنها شمس هذا اليوم البالغة الحر.. أو أعمال البيت والركض وراء "القضورة" الذين لم يلتحقوا بالمدرسة، بعد، هما السبب لهذا الصداع.. بيد أن شمسة تدرك أن هذين ليسا هما السبب فهي لا تكاد تخرج من هواء التكييف الصناعي وهي بالكاد كذلك تهتم بأمور البيت أو الأطفال، فالأمر بكليته عائد إلى الخادمة الفلبينية.. أعادت الغرشة أعلى سطح التسريحة الإيطالية متشبثة بالكأس نصف الفارغ فارشة عجيزتها على حافة السرير، عاود الصداع، الذي بدأ ظهر اليوم بعيد رحيل غاوي، يطن في أذنيها ويستوطن رأسها من جديد...

استغربت في بداية الأمر زيارته، رغم علمها بوصوله منذ اسبوع، بعد كل تلك السنوات في الخارج والتي قررت فيها ان تنسى الغاوي وتدير ظهرها لكل ما حدث غير مأسوف عليه.. لكنه مازال وسيما: بشعره الطويل فوق أرنبتي أذنيه ووجهه المستدير الذي زادت حمرته بعد أن حلق لحيته وشاربه وإن كان جسمه قد بدأ يحشو باستدارة خفيفة وكرشه في البروز قليلا.. مبتسما كعادته...

سمّر نظرته في عينيها الواسعتين، حتى نكستهما، ثم احتضنها بقوة إلى صدره آخذًا بفلقة البدر بين يديه الناعمتين واعتصر فمها في شفتيه المتوهجتين بالفحولة والشباب..، تحرك كل الشباب فيها واعتصرت ظهره بيديها العاريتين من أي زغب والمبيضتين كنور طاغ يبزغ من الأفق البعيد..، تجمعت سحابتان: بيضاء ووردية..، تعانقتا..، وبدأتا في الارتفاع أبعد فأبعد من هذا المضيق الصغير..، وهمتا بغزارة على صحراء عانقت ربيعًا..، وظلتا تركضان، وتركضان في مراتع غائرة لبوح طال وصله..، ثم ان استكان المراق، أو كاد، رويدا رويدا..، بردت السحابتان وفاضتا ملتفتين إلى بعضهما صفرا من الماء بقاع صفصف لم تألفه الظهيرة الملتهبة الحارقة...

حدثته عن شوقها وحبها الذي ظنت أنه انتهى..، وحدثها عن أقطار بعيدة وأناس آخرين بوجوه بائسة وفتيات جميلات لا حد لحسنهن..، لكن صورة شمسة الوحيدة التي بقيت متقدة في خياله لم تبارحه..، حدثها عن زوجها شنون الذي يعرف أسباب الحرائق..، وربما شارك في افتعالها..، وكيف أنه رمى الكثير من قروش الفضة لجدتيهما لتشهد زورًا أن شمسة أخت غاوي من الرضاعة..، أفاقت على قبلة الغاوي، وقد فرغا، أعلى جبينها ممسكا بيديها بين يديه على أن يأتي ظهيرة الغد، حيث يكون المعلم شنون ما يزال في الخارج، ثم انسل بهدوء!((*)).

أحست، وحدها، بالحزن في نظرة المعلم شنون والانكسار والخيبة في عشرين عيناً بريئة، تناوشتها نظرات قاسية، صغيرة وكبيرة، حتما أنهم كانوا يعلمون عن شنون: حاولت أن تغمض عينيها لكنها أبصرت عيونا كثيرة تلاحق المعلم شنون بحقد وتلاحقها بسخرية..، يا إلهي كيف

تسنى له أن يخدعها كل تلك السنوات المليئة بالحب والامل؟..، لاهية عابثة لا تدري أن المياه تجري من تحت قدميها وفي لحظة واحدة انفجر كل شيء..، على وقع كلمات الغاوي عن فساد شنون وجدتها والناس الذين تآمروا على كل شيء واخفوا الحقيقة عن عقلها المليء بالنوايا الحسنة والسماح، ليجرفها الى مناطق لا مجال للتراجع عنها ولا مناص من المضي فيها...

لماذا بعد كل تلك السنين: أكانت منذورة للغاوي في بكارتها الأولى وفي زيجتها التي حافظت على نقائها وطهرها قبل أن يأتيها الغاوي مجدداً ليعيد حديث مراهق وصبية غافلة؟..، اعتراها، بغتة، الوهن ودبت في جسدها الشيخوخة حين تمادت في غيها وغاويها واستسلمت بكل سهولة..، كما لو أن كل شيء زائف ويتهاوى تحت قدميها..، زاد اضطرابها وعاودتها أوجاع القلب التي خفت بعد العملية التي أجرتها قبل سنين في لندن وكلفت شنون الكثير من المال لكنه لم يأبه سوى بعودتها سالمة ترج ضحكتها أرجاء البيت الكبير كأمل أخير يرفعه في وجه شيبته المتربصة كقبر مفتوح ومنذ الظهيرة الجارحة، إياها، زاد فكرها صدعا وروحها تصدعا ورغبة مستمرة في القيء الذي لم يتحقق.

افرغت كامل قنينة (الموكسال) وما يقارب العشرين كبسولة من (الزانتاك) إلى جوفها ودلقت وراءهما جرعة الفضلة التي تزيد عن النصف من كأس ماء بارد، ساحبة البطانية إلى تحت صدرها بقليل، قبيل وصول المعلم شنون من صلاة العشاء الآخر...

((*)) بعد سنوات كثيرة حين قرأ غاوي الحكاية لأصدقائه من مجموعة قصصية لشاب مغمور، لا تربطه به صلة ولا يعرفه أصلا هاله هذا التوارد ودقة معلومات الكاتب رغم أن الحادثة وقعت من فترة.

ناتلي الفرنسية قالت: ان السارد هو غاوي نفسه. الساندرا الروسية: ان السارد هو طبيب شمسة وقال الناقد كيفن الهندي: السارد هي شمسة محمد امين عصفر: أن السارد هو شنون وقال غاوي حتما ان السارد هو الكاتب نفسه.

زاد اختلاف الأصدقاء إلاّ أن أيا من هؤلاء لا يمكن أن يكون السارد: فغاوي لم يكن يعلم، أصلا، بانتحار شمسة بل قدر موتها رغم أنفها / والطبيب، و إن كان علم بانتحارها، فانه لم يعلم بعلاقتها مع ابن عمها غاوي/ وشنون لم يعلم بانتحارها أو علاقتها مع غاوي في عودته الاخيرة / وشمسة لم تكن تستطيع ان تسرد القصة الى نهايتها (اذا قدرنا موتها بعد تناول الاقراص !) والكاتب لم يلتق أيا من هؤلاء فضلا عن عدم معرفتهم وكذلك فارق العمر بين الابطال والقاص.

تماما هو اذن ذاك (السارد) الذي فكرتم فيه للتو!!

اشارات

(1) الغرشة: القنينة - الزجاجة.

(2) القضورة: الاطفال الصغار.

(3) بيت الضنا: الرحم.

(4) MOXAL : دواء لمعادلة الحموضة في المعدة.

(5)ZETAC : دواء للقضاء على الحموضة.

حيواتٌ تنقضي

أمضي وحدي في هذه المدينة الكبيرة أحفرُ قبري بيديّ.. سجنٌ كبيرٌ ممتد لا مناص من المضي فيه إلى آخره أو إلى آخري: أتذكرُ سعدى والقرية الصغيرة البعيدة عن هنا..، رأسي لا يفيق من استكانته..، أحبك يا سعدى وما كان باستطاعتي منع أبيك حين زفك كأي بقرة يمتلكها في زريبته..، يا إلهي: من كان يصدق أنك ستزفين للثور القادم من البعيد كزوجة ثالثة..، أول ما وصل القرية الهانئة التي استقبلته برائحة ياسمينها ونسائها وولدانها باشة هاشة واحتل مكانه في نفسي بسرعة فائقة..، حدثّته عنك وعن حسنك يا سعدى..، وعن لقاءاتنا وعن رائحة فمك المبخر بالياسمين وجوز الطيب حذرني بصدق أبوي أنك لا تصلحين لي : يا بني اتقِ الله في نفسك..، هي لا تصلح زوجة لك بعد أن واقعتها..، لكنني لم أحظ من سعدى سوى بقبلة سريعة ونزقة..، لكن القبلة تمهيد للزنا والعياذ بالله..، لا تتزوجها!..، لكنني لم آبه له مطلقا مضيتُ في حبي إلى آخره..، ولأنه يعلم بكل شيء عنا..، وعن لقاءاتنا..، فقد وشى بنا..، باغتنا..، مع أبيك ونصف القرية..، هادرا مزبدا..، أرأيتم الضال الفاسق..، ولم أفق إلا عشية اليوم التالي الذي زفت فيه سعدى، الجميلة الرائعة كورد الجبل، إلى الثور ليحفظ لها كرامتها وعفتها!..، بعد أسبوع القت بنفسها من فوق الجبل الشاهق..، الساعات طويلة..، في هذه المدينة البائسة..، والطرق لا تؤدي إلا إلى شاطىء عافه مصطافوه

وهجروه بلا رجعة.. الأيام ضجرة والأمكنة لا تتحمل بعض جنوني..، وحزني لا يود مغادرتي بيد أنني لابد أن أنسى، لابد أن تنسى، عش كالآخرين يضحكون غير مبالين ولا آسفين..، اضحك..، إضحك يا هذا..، وحدث أن سرت رقصا وفجأة..، قبل أن تقع الكارثة أمامي..، عبرني النشيد خفيفا نديا..، وغنيتُ سُعدى..، أحسستُ بغتة كأنني : الرائحة والروح..، نعم هذا اذن أنا..، أنا الرائحة والروح..، سأكون عالقا في كل شيء..، وأنا الزمان..، أنا المكان..، وأنا الأغاني الباقية..، وأنا الأماني الآتية..، وأنا..، أنا الأشياء تنسجني..، وانسجها الحكاية...

غير أن فرحا كهذا ما كان ليمضي إلى آخره البتة في هذه المدينة المتلبسة بالغدر والغيلة..، وبغتة وقعت الكارثة..، وبدأت أجمع أوراقا صفراء قديمة وأخرى بيضاء أقل قدما واهتراءً واقرأ:

قلتُ : هذا المساءُ فضاء آخر من بربريات ووحوش..، وهذا المساء جماجم محنطة من خيانات وشؤم..، وهذا المساء مساء آخر مترع بضجيج الأقدام التي تلهب الدهليز الممتد إلى الزنازين المتقابلة تبدو كنقاط في آخر أبجديات العالم القابلة للانفجار أو التلاشي...

في آخر الدهليز حيث تخف حدة التهاب الأقدام عادةً نقطتي..، نقطة تتزنرها العتمة وتعبث فيها الزواحف العمياء وأنا المفتوح العينين بت فاصلة شبه ممحوة..، أقبع منذ فترة لوحدي..، الدركي المتحصن بسلاح يدوي وهراوة على جنبيه دفع بثلاثة هياكل، إلى نقطتي الموحشة، وضج في صوت قهقهة كأنها حال صوت مؤخرته ...

هذا المساء المترع بضجيج الأقدام لن يكون خاويا ووحيدا كالأيام المنقضية..، نقطتي العمياء، في هذا العالم ، لن تكون حكرا عليَّ..،

أطبق الصمت على قهقهة مؤخرة الدركي واصطفاق الباب وبدت العيون الجديدة التي ألمح تطلعها إلى بقايا الضوء النافذ من الكوة الصغيرة أعلى الجدار تتلاشى في صوت نحيب أحدهم وكمن ينتبه إلى وجودي بغتة سألني أحدهم: منذ متى أنت هنا؟ ولماذا؟..،

- لا أدري!..، سنة..، ربما سنتان..، عشر..، لم أعد أحسب!..، ولا أعرف لماذا جيء بي الى هنا!..،

- تلقف الثاني الحديث : أنا أيضا لا أعلم لماذا جيء بي ، كنت سأتزوج قريبا..،

- تحبها؟..،

- جدا حد الجنون..،

لكأن القلب قها عن زفيره وشهيقه ساعة سملته الذكريات بتداعياتها وإعيائها: لا منقذ منه إلا هو..، لا منفذ منه إلا إليه..، هو العشق الأول كالأرض البكر تحتضن نبوءة الحصاد والثمر..، تذكر أيها القلب ساعة النشوة تسفح فيما المكان يغط بالرجال الملتحين والعباءات..، بالمراهقين وهم يختلسون اللقاء في ركن لفته الظلمة..، وربما حدثَ أن باغتُ عائشة العود البلدي عائشة جلنّار الجبل المتضرع فتنة واخضرارا بقبلة أحمّر لها وجه الشارع..، المحتفي ببعض الضوء قبالتنا..،

- تحبني؟..،

- أحبك جدا..، حد الجنون..، لا حد له..،

هدأ نحيب الثالث قليلا ثم اختفى النشيج بدا متأهبا لقول شيء ما لكنه فضل السكوت سعيت باتجاهه..، البكاء مفتاح القلوب إلى الصفاء والطهر إذ لا يستطيع أي أحد أن يبكي لتصفو دواخله..، لكنه استمر

في نشيجه راجيا أن أدعه لبكائه (حيلة العاجز وقدره)..، آه لو تعلم أيها الباكي كم نهنهني الليل في هذه المغارة المنقطعة عن كل شيء: الأصوات..، والوجوه..، والأحبة..، والأصدقاء وخياناتهم الصغيرة..، وأمي...

أمي رائحة الصبر الموشاة بالطيبة والبراءة..، آه كم أشتاق إليك يا أمي كم أحن إلى دفء صدرك المبخر بالنعناع والهال والمرشوش بماء الورد والقرنفل لأبقى ثابتا وصلبا!..، أحس كأنني أهوي..، أقع في بئر لا قرار لها وتبقى أحلامي سوداوية وكئيبة بدونك ياغالية: هكذا تسقط الأحلام، يا أمي بعيدا عنك، كقَبرَة عجوز خانها جناحاها..، هكذا أسقط كنيزك هرم خانه الفضاء..، هكذا أحسُ أن المعاش والحلم يذويان في نقطة واحدة لا تكون فاصلة بين شيئين: حياتين ربما..، زمانين..، مكانين..، هكذا قطرة قطرة أستظل بروحك، الرائعة، وأحلم بالخارج..، زمكانيته وأبعاده الأخرى وبحياة أكثر إمتاعا ومؤانسة وأكثر حميمية..، هكذا في هذه الغرفة العمياء أتوهم نقطة واحدة هي الفيصل لا الفاصلة بين شيئين يجب أن تسير الأمور بينهما...

أخذوا رجب الطيب بمعية رفيقيّ منذ الفجر ولم يعودوا بهم وأنا في النقطة ذاتها اجتر ذكريات الأيام القليلة الماضية وحكاية رجب الطيب..،

رجب يحبنا كثيرا ، يحبني أكثر صدره كاتساع لا يحده شيء مترام لكأنه الفضاء وما وراءه..، قال لي حينما اكتشف بكائي مرة أخرى..،

- أنت قوي جدا ليتني أستطيع البكاء مثلك..،

- قلت له: أنت القوي سنوات طويلة قضيتها هنا وحيدا زادتك قوة وجلدا..،

- قال بابتسامة: إسْمعَ أنت غير زميلينا سأمنحك سري الصغير الذي احتفظت به دائما معي فربما في الأيام القادمة سيأتون لأخذي أستشف أنهم آتون لا محالة لكنني أجهل هل أعود هذه المرة أم لا!؟.،، أعطاني أوراقه المطوية تحت بطانيته

- وقال: ربما لا أعود لكنك باق وستخرج حتما لا تبكي هذه المرة..،،

الذكريات تمتطي رأسي: الاختلافات في الرأي..، مكائد الجيران..، أوهام الأصدقاء الكاذبة حينما انفتح الباب الحديدي والدركي الذي دفع برفيقيّ عاود هيستيريا ضحكه وهو يولي فيما ظل رجب لديهم...

مزيد من الانتظار هل تراه يعود أم أن نبوءته تتحقق هذه المرة؟..، الليلة كالامس ليلتان ولم يعودوا برجب قال أحد رفيقيّ: إنه سمع صراخ الضابط وكاد يلمح وجهه البشع وسياط الدرك تنزل بلسعتها تأوه يا بني آدم..، توجع أصرخ..، هذه المرة فقط كانوا يريدون منه أن يصرخ..، يتوجع..، يتأوه..، لكنه ظل صامتا فيما صراخ الضابط يزيد والسياط تلهب خلايا ظهر رجب..، الليلة كالأمس..، أراوحُ مكاني مفكرًا بافتضاض ما دسه رجب في يديّ من صحائفه المخبوءة لكنني فضلت الانتظار...

هذا المساء مساء النكاية ، والقاتلون الحثالى سأجعلهم يضجون في أصوات مخارجهم بصراخها المتلاشي في قوة صمتي وتحديقي الى البعيد..، ابتسمُ وهم ينزلون سياطهم الغبية على ظهري وتتصاعد أصوات مؤخراتهم وأفواههم : تألم يا بني آدم..، تأوه..، أصرخ..، ثم لا شيء سوى وجوه بشعة وصراخ مختلط المخارج وابتسامتي المستهزئة..، أتذكرُ الفتى الطيب الذي خلفته قبل ليلتين في نقطتي العمياء وبكاءه..، هل تراه سيقاوم؟..، هل تراه سيكون؟..، اه لماذا ورطتُ ذلك الفتى الغض

في جنوني وحشرته في زاوية ضيقة حين حملته عبء صحائف مجنونة مثلي ومثل جنون العالم وحمقه؟..، أسئلة تتقاطر على رأسي لماذا الفتى بعينه وليس سواه..، لماذا أصرُ على جنوني الدائم وأنا أعرف نهايتي وقبري الذي أصبح بانتظاري؟...

السياط..، الصراخ الذي ما عدت أدرك مخارجه..، ابتسامتي المستهزئة بوقحات العالم وجنوني ويطل وجه أمي حزينا ومستبشرا في آن..، كأنه الموت واللقيا..، كأنه الوداع والحياة..، آه أمي لماذا ربيتني على المكابرة ولم تسمحي لعينيّ أن تذرفا دمعة ولو مرة؟..، ما أحوجني الى البكاء، كما يفعل ذلك الفتى الغض ، لكنني ما عدت أستطيع!..، كأسئلة الليلتين الماضيتين التي تقاطرت يمر شريط حياتي سريعا ويعبر الفقراء خفافا منتشين بالحب والوطن والعصافير..، وتعبر أمي بثيابها البيض متوشحة شالا أخضر كانت اشترته ليوم زفافي..، ويمر فتى غضا رافعا رأسه إلى الأعلى مبتسما يركض في حقول الحصاد التي بللها مطر بعيد المصيف يحتضنني وتلتقي عيناه بعيني مشكلة الزمكانية والأبعاد جميعا وموحدة الفواصل بين الصورة والظل ولمرة أولى والأخيرة تستظل روحي التائهة بالحلم والمعاش في نقطة واحدة تكون فاصلة بين حياتين...

هذا المساء مساء الحكاية تلاوين من حزننا..، صمتنا وارتعاش الأكف..، بكاء الوجوه وتسري الحكاية على هذه النقطة الخربة القاسية بخدرها ويبدأ حزن المساء ينفض الوجوه والجدران وبلادة الشعور والداخل المحترق ويبدأ النشيج من رفيقيّ وأنا أحتضن أوراق رجب الطيب وأصيخ لصوت نشيد يعبرني اكسيره..، رويدا رويدا أفتض

أطراف الأوراق التي بدأت تفوح برائحة المسك والشهداء واقرأ:

(أعتقد أن العالم يساويني حمقا أو لعله يفوق..، هكذا إذن أسير بحمقي أنا الخارج من رحم الظلام والتثاؤب وحيدا جئت للدنيا وربما سأخرج كذلك أدرك أنهم يحفرون لجثتي..، قلت لشيخ القرية لا شأن لك بي..، أنا أعلّم الناس القراءة والكتابة بإمكانياتي وامتقع وجهه قائلا: انهم يراقبونك يقولون انك تعلم الناس أشياء غير طيبة..، وأنا أعلم الأشياء الطيبة التي تجعلهم يزهرون بقوة ضاربين بجذورهم في الأرض..، ولم أكن أظن أن الشيخ البغيض يحمل لي كل ذلك الحقد: هذا هو اقبضوا عليه يعلم الناس أشياء هدامة تضر بعقولهم وبصائرهم..، حقير يتعامل مع أعدائنا في الخارج ولم أكن وقتها سوى شاب متحمس يريد أن يعلمهم الخير ويزرع في نفوسهم العزة والغيرة على الأرض والعرض من براثن أيادي الشيخ التي طالت كل شيء..، لكني سأخرج بعد موتي في الأشجار أكون..، في الماء..، في الهواء..، أينما ولوا وجوههم أبصروني..، أينما اتجهت آذانهم سمعوني..، أينما مدوا أنوفهم..، سأكون الرائحة والروح التي تسكنني بعد موتي ستعذبهم أحياء).

في الليلة الثالثة التي عاد فيها رجب أدركتُ أنهم أتموا حفر القبر؟..، وبات من الطبيعي أن يطمروا الحقيقة والطيبة صرخت بقوة : أولاد الحرام قتلوا رجب..، رجب الطيب يحب العصافير والوطن..، تنازعتني رغبة عارمة في البكاء وتهشيم الجدران برأسي العاري لم أبك..، أعدتُ فتح الأوراق قرأت:

(سأخرج الآن ليس كمثل حياتي الأولى..، سأخرجُ ممتلئا بالحيوات..، حيوات حقيقية حبلى تناديني أن تعال..، تعال)...

لم أبكِ أحسستُ بأحقاد العالم تتكالب على رأسي الصغير المثقل بالرغبة في البكاء والانتقام قرأت في أوراق رجب الطيب:

المدن ضياع البشر.، والبشر كائنات التزاحم والصراع التافه..، آه من هذه المدينة الضائعة أنا ضائع أيضا..، الزحام يحوطني وألف هذا الزحام..، أريدُ أن أصحو ولا أريد هكذا أكون كجرذن قذر فقد قدرته على التحكم في أظافره الشائخة..، هكذا تكون هذه المدينة الضائعة ملجأ والملجأ يضيق بزحام الموتى..،

أصخت السمع لأحد رفيقيّ وهو نائم يتشنج بدأ في الهمهمة والصراخ تم أخذ في البكاء: يا الهي لماذا علينا أن نبكي دائما حتى في أحلامنا..، في ضحكنا ننشج بالبكاء في موتتنا الصغرى. أعدتُ فتح الأوراق...

كمثل تضاريس ممحوة أثقلتها المعرفة أؤوب حمقا!..، أعتقد أني فائق الحمق أو أنه العالم!..، هكذا أعود أدوس حياتي الأولى وأزهق الزعيق..، هكذا أمد يدي في لجة الظلام حتى لا أكاد أراها وأرحل في الأمد المتصل مبشرا بالآتي..، أنا رجب "أدرك أنهم يحفرون لجثتي" لكنني سأكون عالقا في كل شيء..، داخلا في مسامهم كالرائحة ولن يجدوا فكاكا..، سأعود منسلا من جدثي لأعذبهم سأعود..، طويتُ الأوراق وصرخت مغتاظا يا صاحب السجن سأكون رجب!...

- اسمك ؟..،

* رجب!..،

- رجب مات أيها الفتى المجنون..،

- أخرسوا أيها الجبناء أنتم الموتى أما رجب الطيب فحي..، حيٌّ أرزق..، أنا رجب..،أنا..، وكانوا يضحكون ويلعنون جنوني وكان ضحكهم

أشبه بأصوات مؤخراتهم النتنة..

هذا المساء مساء البداية فقط..، فضاءٌ ممتد لا يفصله شيء بين حيوات كثيرة..، حينما طوى، الرجل الخمسيني ، طرقات قريته البعيدة حاملا أوراقه..، وأوراق رجب الصفراء القديمة إلى المدينة..، المدينة الكبيرة التي أضاعت البشر باحثا عن أناس حقيقيين وأحياء يبتسمون في وجوه الموتى الماضين إلى حتفهم...

يبتسم طاويا أوراقا تحت ابطه اليمنى ويبحث في الوجوه عن بشر وحياة حين داهمته سيارة سحب مياه المجاري من جنبه الشمال أطارت به إلى الأعلى ثم قذفته أمتارا إلى الأمام..،طارت الأوراق الصفراء نحو السماء وبدأ تجمع الخلق..، جمعتُ الأوراق بعناية، واحدة واحدة، قرأتُ في الصفحة الأولى ذات الكلمات التي عبرتني قبل ساعتين فقط من وقوع الكارثة..، أنا الرائحة والروح سأكون عالقا في كل شيء..، وأنا الزمان..، أنا المكان..، وأنا الأغاني الباقية..، وأنا الأماني الآتية..، وأنا..، أنا الأشياء تنسجني..، وأنسجها الحكاية..،

- حينها فاجأني الشرطي متسائلاً : من أنت ؟..

- رجب...

اضاءة :

في أوبته الأخيرة قرر ألاّ يموت!

بنفس واحد تصل الملجأ!

إلى روح أمي: كل شيء شائخ..، كل شيء بطعم الفجيعة..،

اليومَ فقط تأكدت بأن الترقية طارت كعادة السنوات العجاف التي أكلت ما قدمت لهن من خضرائك بعد أن نهشتك الوظيفة..، كقطيع ذئاب ممزقة أعصابك في رحم سنوات لا تحبل سوى بالضعف..، لكن هل يعنيك حقاً أن تطير الترقية؟!..، فهذه ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة حتماً لكن ما يؤرق فعلاً أنك منذ شهور خلت لم تستطع الكتابة..، طارت الأوراق من بين يديك كما طارت الترقية وأنت تحاول كتابة قصة قصيرة بحجم الكون..، ببساطة الحكاية وإدهاشها..، فأنت يا صديقي مثلي تدور منذ الرابعة عصراً في حلقات الفراغ كخدعة الأرض التي تمشي تحتك بآدمييها..، تتفحصك الوجوه باستغراب لتصل إلى مقصلة الليل وحيداً كما بدأت المشي أول مرة تعيده كل يوم..، حيث رميتَ العمامة الصوف التي تسنمتك باكرا كجبل الحجو في قريتك الصغيرة وحتى الثالثة بعد الظهر بشمسها التي تعبث برغبات المندسين في سياراتهم عائدين إلى بيوتهم يحلمون بصحون الرز وأحضان النساء وقنوات البث الفضائي التي ولدت ميتة من وجهة نظرك على الأقل وتبعثك ضجراً منفلتاً من المناظر المتكررة..، تقتعد الأرض أمام صحن الرز المبخر بالهال وماء الورد الجبلي والمطبوخ بالمكسرات التي تندلق من أحشاء الدجاجة بلون الذهب لن تأكل أعرف أنك لن تأكل ستحشو يدك

اليمنى داخل الدجاجة بلون الذهب لتستشعر الدفء وربما الحرارة ولا تفلت كفك من وسطها إلا بعد أن يسح جبينك عرقاً ينهمل على نظارتك الطبية التي تخفي عينيك الواسعتين والخجولتين..، لم تعلم أن عينيك رائعتنان حقاً حتى فاجأتك حسنة حبيبتك الأولى التي خطفت أولى نظارتك الطبية ذات العدسات الكبيرة قالت أنت أحلى كثيراً بدون النظارة..، تفلت يدك اليمنى من العذاب وساعدك يرتعش تصب قنينة الماء البارد عليها قبل أن تحكم دورة الحمام لتشعل سيجارة بيدك اليسرى الشيء الذي تتقنه أكثر من أي شيء بهذه العسرى فقط..، تمج أنفاسها في تتابع مذهل وتلعن لماذا اليمين فقط للأكل و المصافحة و الالتقاط كل شيء باليمين كل شيء حتى الكتابة..، آه لو استطيع الكتابة باليسار إذن لتغير كل شيء وأنت تعرف أن لا شيء يتغير حتى لو استطعت إمساك القلم بجميع أطرافك فإنك لن تستطيع الكتابة تهرب من دخان السيجارة الذي تكوم أعلاك كمارد انسرب منك تتخيل نفسك قمقمه الذي انفلت منه لتوه واذن لطلبت من الجني أن يهديك إلى طريقة ما لتكتب ربما سيعطيك حلاً جذرياً للمشكلة وربما ستكتب في كل أسبوع رواية وفي كل يوم قصة وفي كل ساعة قصيدة وربما ستحوز جائزة نوبل للآداب قريباً..، تهرب من جنيك إلى الشارع أنت لا تريد جائزة نوبل لأن ثلثي أعضائها من اليهود! أمن أجل اليهود ترفض الجائزة؟ لا لخاطرك أنت! وما دخلي أنا؟ أنت لست يهودياً لتحوز جائزة يوزعها اليهود! ثم ما دخل الأدب بالسياسة؟ هما التداخل بأم عينه وأبيه!..، وتقيم حواراً وهمياً يشبه حوار الطرشان آه هذه الطرشان لن يقبلها الإعلام المحلي فهي لا تدخل ضمن الكلمات المعمنة استبدلها بالصمان إذن! وهل الصمان فصيحة؟..، تهرب إلى الشارع قبل أن تفضحك الفصحى تدور برأسك الذي لا تحسه

وكأنه انخلع مع عمامة الصوف قدام الصحن الذي برد الآن كما بردت كتابتك وأنطفأت جذوتها..، منذ متى لم تكتب؟ منذ متى تعاندك القصة؟ والحكايا تملأ البلد والناس والشوارع أخرج إلى الناس أنزل من عليائك أو كسلك لا فرق التقط الحيوات التي تتكون لتوها والشخوص الذين يقصون حكايا جديدة لكنك تمضي قدماً تعيد الكرة تلو الأخرى..، اليوم فقط قررت أنك يجب أن تكتب اليوم تكرر المحاولة التي بدأتها منذ شهور لاهثا وراء الحكاية منذ الرابعة عصراً وحتى قبيل منتصف الليل تحمل قلمك وأوراقك على شكل مذكرات تبدأ في الكتابة تشطب الكلمات الأولى تستمر بقوة يدك اليمنى ذاتها تغطي الكلمات بالحبر الأسود تمزق الورق وتغدو المذكرات المنتفخة بدون أوراق وأنت تودعها القوارع التي تعبرها يومياً نسيا منسياً..، منذ متى لم تكتب؟ منذ متى كتبت آخر قصة؟ لم تعد تذكر! أعرف أنك تذكر لكنك تخشى تذكر تاريخ آخر قصة كتبتها تبدأ العد نيسان.. أيار.. حتى تصل كانون الثاني لن تكتب هذه الشهور حتماً تشطبها أنت أو يشطبونها عوضاً عنك لن يسمحوا لك بتضمينها قصتك تحاول عد الشهور الميلادية إبريل.. مايو.. حتى تصل ديسمبر تقف عند هذا الشهر تبدأ العد من جديد لا تفلح في التواصل مع الشهور حين يقفز الجواب إلى رأسك مفزعاً منذ آذار لم تكتب حرفاً منذ عشرة أشهر لم تكتب!..، تنضد الأوراق على شاكلة مذكرات وتشرع في الكتابة يقفز غضب مسؤولك غير المبرر إلى الورقة أعرف أن وجوهاً كثيرة ستزدحم بالورقة عما قليل..، ستغرقك العيون بصمتها باستهزائها وبضجيجها عبوسها..، أيها الضعيف ستكتم قلمك الوجوه التي تتقافز من الأوراق وتتعلق مندسة في حلقك كروائح عوادم السيارات القديمة في مدينة مكتظة..، تنتشر الوجوه في الأوراق: الفتاة التي أحبتك لأنك كاتب تركتك

لأنك لم تكتب لها قصيدة هي لا تميز بين القصة والقصيدة على أي حال رغم أنها كاتبة معروفة ومشهورة في صفحات رسائل الأبرياء التي ابتدعتها الصحف لتسويد ماء وجهها الذابل أساساً..، والترقية التي تطير منك كل سنة بدون وجه حق رغم استحقاقك..، واللاحقون من الموظفين الصغار المدعومين الذين يقفزون على رأسك كل سنة يصنعون تاريخهم أربع أو خمس سنوات في الخارج ويعودون بمستقبل أفضل منك وبابتسامات هائئة بلهاء ..، والأصدقاء الذين انفض سامرهم عنك..، أعرف انك ستلعن هذا الرأس المنبّت عما حوله وحيداً..، أعرف أنك ستلعن ضعفك الذي يشلك كل يوم منذ ما يقارب السنة لكن خدعة الكتابة التي ناورتك ستمضي بك إلى الحد الذي لم تقدره..، لماذا لم تقدر الكتابة حق قدرها!!؟..، هاأنت كالعادة وحيد تصل أقرب (كابينة) تلفون لا تعرف إذا كانت (كابينة) هذه عربية أم معربة أم مستعربة في عرف أساتذة النقد الجامعيين الذين يحسبون كل شيء بدقة ويحسبون كل صيحة عليهم؟!..، تدير نفس الأرقام الستة في نفس التوقيت يومياً تسأل بصوت مرتعش خائف هل نام الناس..، هل نام الأطفال؟..، آه هؤلاء الأطفال الذين يعرون عزلتك كلما رغبت أن تتوحد وتصفو..، يثيرون الجلبة وغضبك في نفس الوقت وعندما تطردهم من الغرفة التي استأثرتها لكتبك ومذكراتك تكون الأفكار قد طارت ولا يعود بامكانك الكتابة أو القراءة ولا يكون بإمكانك عمل أي شيء عدا أن تتوزع في الشوارع كعادتك اليومية منذ شهور غير آبه بنظرات الصغير الحزينة ودمعتين انحدرتا لأنك لم تلعب معه أو حتى تكفل له ابتسامة صفراء صغيرة أنت لم تكفل له أي شيء لمستقبله الذي تفزعك أسئلته حالما تطرق رأسك رغم تيقنك من الجواب الحزين يأتي في صوتها العذب الدافئ الذي لذت بأسواره ولا

تزال في مصائب هذا الدهر..، نعم نام الأطفال ونام الناس ومازلت انتظرك هل ستتأخر هذه الليلة أيضاً!؟..، تشعر براحة وأنت تخنق زر إنهاء الاتصال بابهامك الغليظ وبنفسٍ طويل واحد لا تقطعه فواصل أو تحده علامات التنصيص والتشظي والتنظيرات أو الكلام الكبير الذي لا يفضي إلى نتيجة حقيقية..، تلج الملجأ..، تمسك بالقلم محاولاً الولوج مرة أخرى في سُمَ الكتا بة...

رجل المطر

ناديته: ياعم! ياعم!..،

أدار رأسه باتجاه اليمين ربع دورة وبدأ جانب الوجه مبتسماً..، ياعم نسيت صرتك!..، أأتلقت ابتسامته وشع وجهه ضياءً..، تزداد رائحة الأرض مسكاً وتنتح بحلم المطر..، رفع عصاه الغليظة بخفة عن الصرة و مضى إلى الأمام...

في تلك العصرية بعد أسبوع من رحيل أبي سألتُ جدي الذي غضب من حدة عمي من هم الشهداء؟..، أجاب: هم مبخوتون يصطفيهم الله ويختصهم من بين البشر ليكونوا معه..، حينها أحتد عمي ناصر: أوه يا أبي المبخوتون هم الناس الذين عاشوا وأثروا على أكتاف الذين قاتلوا وماتوا..، ظلت الأسئلة تضج براسي الصغير: من هم الأحياء؟..، من هم الأموات؟..، من المبخوتون؟..، من الشهداء؟..، لكني لم أشأ أن أسأل جدي الحزين منذ رحل أبي إلى الحاضرة البعيدة..، وخروج عمي مغاضبا ناحية الوادي خلف القرية حاملا صرة كتبه في نوبته المعتادة التي تستمر أياماً ثم يعود إلى القرية مبتسماً ويضمني إلى صدره بيديه الطويلتين لكنه لم يعد هذه المرة أيضاً!...

في تلك العصرية ذاتها، وكنت أنتظر أبي الذي لم يكن قد عاد بعد، ارتفع المطر قليلاً..، البستني أمي قميص صوف تحت الدشداشة وخرجتُ لابحث في الأرض مع أبناء الجيران كعادتنا بعد توقف المطر آملاً في الحصول على "قرش فرنس"..، التقيتُ بخلفان، وحميد، وسبيت، ومريم بعد أن قطعت

السكة أمام بيت العم عزان.،، دلفنا الزقاق المؤدي إلى الباحة.،، فضّل الجميع الرجوع وذهبت باتجاه الخرابة القديمة.،، أبرقت السماء وأرعدت بقوة وصل البرق حتى الأرض.،، درثُ السحب مخزونها مباشرة فوق الخرابة حينها أحسستُ بالخوف والضياع والبرد رغم قميص الصوف.،، تكومتُ في زاوية من زوايا الخرابة شعر برغبة عارمة لاحتضان صدر أمي الدافئ...

كان البرد شديداً وانهمرت المياه.،، دفقت من مزاريب الخرابة المهملة وسالت في الأقنية التي جرفت الطين بقوة والرعد يصك زوايا الخرابة والبرق الذي يصل الأرض يلمع قدامي.،، وضعتُ يديّ بين ركبتي.،، التمع البرق بحدة مرة أخرى كاشفاً المكان.،، رفعتُ رأسي إلى تماس الجدارين ومع انبعاث البرق الذي يصل الأرض خرج رجل طويل: طويل جداً ونحيف ساقاه بالكاد تحملانه ولحيته تصل سرته يحمل عصا غليظة يعلق بها صرة يضعهما فوق كتفه الأيمين قال: سيتوقف المطر وستخرج إلى بيتك عما قليل!...

سألته من أين جاء وإلى أين يمضي.،، وماذا يحمل في صرته ولماذا يبدو غريباً؟.،، أجاب باقتضاب: أنا رجل المطر أيها الصغير أحمل في صرتي البخت وضحك بقوة أرعبتني حينها توقف المطر.،، أنزل عصاه بهدوء ورفعها بسرعة عجيبة قبل أن يرتد طرفي خالية.،، كانت العصا أطول مما تصورت وأقل غلظة عن ذي قبل ومضى إلى ناحية الجدار الذي انقشع جزء منه بفعل المطر والبرق الذي يصل الأرض.،، انتبهت إلى الصرة التي بدت كبيرة ومتسخة ومرعبة ناديته:

ياعم! ياعم!.،، لكنه كان قد اختفى...

مع قدوم الليل أحسست بأطرافي باردة جداً ورأسي تأكله الحرارة كأنه أخرج لتوه من تنور الشواء وأنفي يزتكم برائحة الأرض التي تفيض بحلم

المطر وكما لو أن أبي وقف فوق رأسي و مسح بيده اليمنى أعلى جبيني خصني باصبعي حلوى زاهيين وحثني أن أحصل على الصرة من رجل المطر الذي له رائحة الأرض وقت احتضانها حبات المطر وملابسه تتضوع بعبق لا ينسى قال: انها بختك يا بني في هذه الحياة ولم أشعر بشيء حتى الصباح...

كان جدي قد وصل من البندر الذي لا يحب أن يذهب إليه كثيراً..، هذه المرة ذهب متقصياً أخبار أبي الذي رحل منذ جمعتين ولم يعد..، سمعتُ اللغط الحادث في فناء الدار تخيلتُ أبي وسط الحوش تماماً يخرج أصابع الحلوى بألوانها الزاهية ويوزعها علينا واحداً واحداً ويخصني باصبعين إضافيين..، أبي يحب (البندر) كثيراً عادة ما يذهب إلى البندر مرة واحدة على الأقل في الشهر هذه المرة ذهب برأسين من الماشية وثلاث جرار من الجبن الأبيض واللبن المالح والسمن لكنه لم يبت كعادته عندما يذهب نهاية الأسبوع ويأتي عصر اليوم التالي بعد أن يؤدي صلاة الجمعة في الجامع الكبير..، حضر قبيل المغرب القى التحية على جدي وعلينا وزع أصابع الحلوى الزاهية..، خصني باصبعين اضافيين....، خلع ملابسه واستبدلها ببيضاء جديدة توشح الصمعة وحزام الرصاص ومخرين إضافي وكسرات خبز في قصعة بيضاء..، لقد نشبتْ الحرب في الحاضرة الكبيرة والطائرات تدخلت لأول مرة في القتال دكت المدينة والجبل (قال وهو يغادر)...

بعيد ساعات من وصول جدي من البندر أرعدت السماء وابرقت قبل أن تنزف ماء عيونها بشدة ولم تتوقف إلا فيما ندر شعرتُ بالبرد والخوف..، ذات الخوف، الذي داخلني من منظر رجل المطر، وأنا أنظر أبي المسجى على نعشه والدماء لا تزال تنبعث من جسده الذي لم يغسل ولف بذات الدشداشة التي حزم فوقها مخزين الرصاص..، حينها أدار الرجال رأس أبي

باتجاه القبلة وأضجع على جنبه الأيمن. أأتلقت ابتسامته وشع جسده ضياءً ونوراً كرائحة الأرض تستقبل حلم المطر والصرة البيضاء الكبيرة المتسخة والمرعبة بقيت وحيدة ما بين الخرابة القديمة والمقبرة...

ارتفعت عصا القوم، الغليظة: أقل غلظة من ذي قبل والطويلة: طويلة جداً، بخفة عجيبة عن الأرض وارعدت السماء من جديد ومضوا في طريقهم يحوقلون حينما انفلت عمي ناصر، الذي عاد صبيحة اليوم من الوادي، عنهم ناحية الصرة..، رمقها فترة ثم غزر عصاه الدقيقة فيها ورفعها ببطء..، أدار رأسه ربع دورة وبدا جانب الوجه مبتسماً وهو ينظر ناحيتي..، كنتُ أناديه وهو لا يكاد يسمعني: ياعم! ياعم!...

ملاحظة الرجل البسيط التي لم تعبر

ما أثار استغرابي تلك الظهيرة الحارة، وأنا أتذكر كلمات العم عمران، أنني لم أر أثراً يدل عليهم وكأنهم حلم قضى نحبه في ذاكرتي أو تبخر مع صيف مسقط اللافح ببساطتهم وطيبتهم التي تعرفت عليها، فيما تفرضه المعرفة السريعة النزقة، وأنا أعبر في سياراتهم الأجرة من مطرح إلى مسقط حيث رزقنا بالمولود الأول بعد تسع سنوات عجاف..، اضطرُ للاندساس في «ميني باص» مقابل مستشفى خولة في سيح المالح وحتى محطة بلازا بعض الأحيان اضطر لركوب «ميني باص» آخر مقابل مستشفى النهضة إذ يكون السائق إما ملتزما بالاتجاه ناحية الحمرية وإما يكون مستشفى النهضة محطته الأخيرة ليقفل راجعاً عن طريق الدوار القريب تحت الجسر إلى ذات خط سيره الذي اقلني منه باتجاه الشارع السريع بتفريعتيه إلى البواطن أو داخل عمان الذي ارتبط في ذاكرتي كطفل، وربما لا يزال، كمنطقة محصنة عصية عن الاختراق إلا من قبل العلماء أو بالسحرة وعصية على الفهم كذلك...

عادة ما أقطع الشارع المقابل لمحطة بلازا حيث تربض باصات النقل الوطني ذات الخطوط الخضراء والحمراء إلى محطتها الأخيرة بجانب سوق السمك في مطرح استغربتُ لماذا لاتصل رحلات هذه الباصات العملاقة والمكيفة إلى سداب؟..، أترجل قاطعاً الشارع باتجاه دوار السمكة لاصادف أول الموقفين المخصصين لسائقي سيارات الأجرة والذي لا يبعد سوى أمتار

قليلة مقابل الدوار أما الموقف الآخر فيقع على بعد حوالي ستمائة مترٍ أو يزيد عند خطوط المشاة المقابل لسكة سوق الظلام.،، في المرة الأولى ولحالة الإعياء والكسل التي انتابتني جراء التنقل بين باصين صغيرين وباص نقل وطني إضافة إلى المشورة التي تفرضها مثل تلك المناسبات فإنني فضلتُ الالتحاق بأصحاب مواقف سيارات الأجرة القريبين لكن وبفعل بعد المكان عن ذروة الحركة التي تنساب أو تزدحم في الموقف التالي فإن الانتظار عادة ما يطول لنصف ساعة أو ساعة في بعض الأحيان لانتظار فرصة الراكب الأخير إلى مسقط الذي عادة ما تنتهي رحلته عند المسجد المجاور للمدرسة السعيدية في مسقط لذا قررتُ أن الحق في المرات التالية بأصحاب المواقف عند خطوط المشاة إذ لا تزيد فترة الانتظار في الغالب عن عشر دقائق ولأنك تألفهم بسرعة من تبسطهم في الحديث وتندرهم من أي شيء وكل شيء...

بسطاء طيبون جداً تعرفهم بسيماهم في وجوههم: ضحكهم المفرط على بعضهم بعضًا أوتندرهم على بعض المارة. تعرفت على العم عمران الذي عليه الدور التالي - فالأمور بينهم منظمة عكس ما يبدو للرائي لأول وهلة - في التوصيلة بانتظار ثلاثة ركاب إذ كنت الراكب الأول الذي يحظى بفرصة الجلوس بجانب السائق إلا في حال وجود إمرأة وإن كانت القادم الأخير فإنها تحتل المقعد بجانب السائق...

تفحصني بنظرة متوجسة وأنا أحمل على يدي اليمنى ملفين بنيين مليئين بالأوراق وأحمل في اليسرى كيسا بلاستيكيا محشوا بأشياء خاصة وأوراق مسودات وبيضاء للكتابة.،، خلع نظارته وعركها بأطراف دشداشته، وضعها من جديد ورمقني بهدوء وابتسامة واثقة: أنت صحفي!؟...

- لا ليس تماماً.،،

- أعتقد أنك صحفي أو كاتب أو مثقف!!..،

خرجتْ كلمته الأخيرة بابتسامة ذابلة..، ابتسمتُ بدوري مترقباً بدون أن أجيبه لكنه تابع:

- أقسم أنك مع هذه الكتب التي تحملها والأوراق التي تتقافز من يديك لا تحمل قلماً!..، أنزلتُ الكيس والملفين..، فتشتُ جيوبي..، فتشتُ الملفين والكيس..، خلعتُ العمامة وحككتُ فروة رأسي بعنف..، سح جبيني عرقاً..، خلعت النظارة ودعكتها بأطراف الدشداشة وهو يرمقني بذات الابتسامة قائلاً:

- « قلت لك أنتوه المثقفين بدون أقلام!»..،

أفزعتني ملاحظته، الذكية، كدبور هدم عقره رددتُ: ماذا تقصد؟!..،

ابتسم بهدوء وثقة: لا شيء كنت أريد قلماً لأثبت عداد السيارة!..،

اكتملَ عقد الراكب الأخير، كان هندياً لحسن الحظ، بيد أن ملاحظة العم الساخرة واللاسعة: (مثقفون بلا أقلام!) ظلتْ تضجُ برأسي رغم لطافته وتبسطه في الحديث، خلال الرحلة، عن مهنته كسائق منذ ثلاثين سنة حيث كان شارع ريام فقط هو الرابط بين مسقط و مطرح وعدم رغبته في تغييره بعد توسع شبكات الطرق وتعددها...

بسطاء طيبون جداً تألفهم كما لو أنت منهم في طيبتهم الزائدة وأحاديثهم العادية التي تتكرر وعدم اعترافهم إلا بهذا الطريق وكأنه عالمهم: منتهى علمهم ومبتغى حلمهم..، في كل توصيلة يصل ما يقبضونه من أربعة ركاب ستمائة بيسة وإذا ما صادف أحدهم الحظ فإن ريعه اليومي قد يصل إلى اثني عشر ريالاً بين جيئةً وذهاباً...

في مرات لاحقة تجرأتُ على سؤال أحدهم: إذا ما كانت "هالشغلة"

مجزية.،، نظر إلي باستغراب بادئ الأمر ربما للطريقة الاستعلائية التي تبدو في حديث المثقفين عادة أو ربما لهجانة كلمة هالشغلة..، ابتسم كعادة سائقي سيارات الاجرة إذ يسخرون ويلمزون: العمل زين يكفي، بعد احتساب بنزين السيارة القديمة الكبيرة «الستة سلندر» تصرف بنزينا وزيتا أكثر بكثير من السيارات الحديثة والصغيرة "الأربعة سلندر" وأنه فكر بشراء واحدة جديدة لكن ما يتحصل عليه من ربح بالكاد يكفي لأسرته الكبيرة كما أن راتب التقاعد المبكر الذي يحصل عليه شهرياً يذهب إلى سلفية البنك التجاري..، إستغربَ كيف أنه استلف ثلاثة آلاف وعندما سأل عن الباقي من الدين كان المتبقي ثلاثة آلاف ومائتي ريال «يا أخي هالبنوك حلبتنا» لكن ما أثار سخطه هو زملاؤه سائقو «الميني باص» الذين بدأوا يكثرون ويلتقطون الزبائن لأنهم يلفون الشوارع السريعة والداخلية بدون توقف: «أمس هاذي أمس جاء واحد منهم ونحن ننتظر آخر راكب لسيارة أحد الزملاء، وركب الزبائن الثلاثة الذين كانوا ينتظرون معه..، لكن الشباب لم يسكتوا عنه أنزلنا الركاب وضربناه.."، كانت طريقة حديثه في محاولة لتقليدي على أمل إقناعي والتواصل معي أشعرتني بفخر ورغبة في الضحك في آن...

بسطاء طيبون جداً تحسبهم، على مقاود سياراتهم برؤوسهم المرفوعة بعزة وكبرياء وهم يلتقطون الرزق، أمراء من عصر بعيد بائد..، تألفهم سريعاً ولا تنساهم أو لا تنسى سحنات وجوههم السمراء الكادحة على الأقل..، أبدا يأسرك حضورهم وقصصهم الساحرة أو ذكرياتهم القديمة تحسب تعففهم غنى يزيدهم هيبة آنفين بإلحاف الناس..، هذه الظهيرة وأنا أعبر نفس الاتجاه باحثاً عن توصيلة إلى مسقط طاردتني ملاحظة العم عمران "مثقفون بلا أقلام"

كأثر باق يدل عليهم أما هم فلا أثر لهم، وكأنهم حلم تبخر في الذاكرة أو قضى نحبه بفعل حرارة صيف مسقط كلهيب مسلط على الرؤوس منذ أمد سحيق، وخلت السيارات ذات اللونين البرتقالي والابيض في الموقفين من سائقيها بسبب مشاجرة تالية مع مجموعة سائقي الباصات الصغيرة لرد اعتبار زميلهم الذي أشبع ضربا يوم أمس...

ذهب ربعهم إلى المستشفى وأغلبهم ضجت بهم الزنزانات القريبة الواهجة والضيقة على أناس بسطاء وطيبين وأمراء يأكلهم الزمن فيمضغون بعضهم بعضا...

النهاية لم تكن هكذا!

القصتان تداخلتا بشكل كبير في رأسي حتى أنه لم يعد بإمكاني التمييز بينهما.. فالقصة التي حدثني عنها زميلي في الشركة العالمية لإنتاج اليورانيوم المخصب صبيحة الثامن من شباط/ فبراير 1999م ذكرتني بقصة كتبتها عام 1988م أثناء دراستي للماجستير.. ولم أضمنها أيا من مجموعاتي القصصية الثلاث التي صدرت أعوام 94 و 96 و 98م.. وقد قادتني حكاية زميلي للبحث في أوراقي عن المسودة التي كتبتها عن حكاية لا تختلف عما حدث لصديقة زوجتة حدثت عصر أمس حيث أخطأ زوجها مرتين.. غاب لأكثر من ثلث ساعة متذرعاً، لزوجته، بالبحث عن الحمام ولم ينتبه أنها راقبته وهو يتبع المرأة الممتلئة الصدر والمرتدية تنورة جينز زرقاء ضيقة وقصيرة إلى الجانب الآخر من المبنى التجاري الضخم ومن موقعها بجانب قسم أحذية الأطفال تأكَدَتْ أنه دس في يد المرأة الممتلئة ورقة صغيرة بعد أن حادثها لفترة وجيزة...

أحستْ الزوجة بثقل الطفل الرضيع على ساعدها الأيمن.. أضجعته على الكرسي الطويل المحاذي لقسم الأطفال وانطلقت وراء الطفلين الصغيرين اللذين قلبا هدوء المكان.. اصطادتْ الطفلة ذات الثلاث سنوات بعد أن باغتتها من خلف صف ملابس الرضع فيما ظل الطفل، ذو الستة أعوام، دائرا في المكان يثير الجلبة سارحاً بين صفوف ومسارب الجانب الأيمن من الطابق الأول للمبنى الضخم...

بعد دقائق، عادت بالطفلة إلى حيث يضطجع الصغير، لمحت المرأة البيضاء السافرة الممتلئة تردُ على ابتسامة زوجها وتومئ له...، استرخت بجوار الرضيع وهي تمسك بالطفلة، أحست بخدر شديد في يدها اليمنى عاودها ذات الألم يسري إلى جنبها الأيمن كاملاً ثم يتصاعد إلى رأسها ليصيبها بشبه شلل قالت لها صديقتها الطبيبة قبل سنوات خلت وكانت لم تنجب بعد: مرضك ليس عضوياً فقط يا مريم ربما له علاقة مباشرة بمشاكل البيت أو ضغوط معينة، والحقيقة أنها لم تشتك قبل الزواج من أي عارض صحي بل بدت خلال فترة خطوبتها من حمد، أكثر القا وعافية، وبدا هو أكثر جاذبية وشباباً قبل عشر سنوات وكأنه الحلم الذي انتظرته طويلاً بيد أن الأمر اختلف تماماً بعد سنة من زواجهما وأمام إصراره ارتدت الجلباب الطويل وطوقت شعرها، الجميل الفاحم الطويل كليل لم يرخ سدوله بعد، بغطاء الرأس فيما ظل هو على هواه متسكعاً إلى آخر الليل ينفق قروشه في المراقص الرخيصة لراقصات آسيويات وعربيات يجدن امتصاص البيسة من الآيادي التي قترت على أبنائها ولولا أنها رفضت طلبه تقديم استقالتها من عملها لأصبح المصير مختلفاً الآن.. في السنة الثانية من زواجهما، حين تأكدت من تصرفات زوجها، بدأت تعاودها الآلام حتى تفقدها السيطرة وتصبح شبه مشلولة رغم أنها أعطته كل حبها ووهبته كل شيء فما زال مصراً على خيانتها وفي كل مرة تواجهه بتغير سلوكه، خصوصاً بعد مجيء طفلهما البكر، يوافقها على تغيير سلوكه بابتسام وهدوء...

اقتعدتْ الكرسي بجانب الرضيع تراقب الحركة، بعينيها الواسعتين.. فيما انفلتت الصغيرة ذات الثلاثة أعوام من يديها..، ولم يعد في إمكان مريم الحراك بعد..، صراخ الرضيع بجانبها وهرج الطفلين يزيد في أذنيها.. عينان

تبرقان وتدوران في النواحي مع حركة الطفلين التي زادت حدة وغصة الرضيع الذي طفح ببكائه فيما عبر الزوج وراء المرأة البيضاء إلى خارج المبنى.،، وضعت الزوجة رأسها على رقبة الكرسي وانهدلت يدها اليمنى إلى الأسفل تكاد تلامس الأرضية...

اجتمع الآسيويون في المحل حول المرأة...، كان لسان مريم قد اختفى تقريبا في تجويف حلقها وبدت أسنانها في الاصطكاك وجسدها في الانتفاض وسقطت على الأرض..، انفلت بكرها باحثاً عن أبيه وحينما عاد به بعد دقائق كانت الزوجة قد انتهت من وضع كأس الماء على طاولة مدير عام المركز التجاري الذي أسعفت إليه..، وبدأت في ربط حجابها..، طار عقل الرجل وجن جنونه وأهدر وأزبد (الفاسقة، الفاجرة، تتكشف على غريب)..، وهو براحة يده اليمنى بقوة على وجهها المتعب..، وفر موليا إلى الخارج بعد أن رمى عليها يمين الطلاق...

النهاية المزعجة التي حدثت في القصة التي حكاها زميلي عن صديقة زوجته الطيبة لم أكن قد خططت لها بهذا الشكل في مسودة القصة وظللتُ أبحث عنها لفترة بين أوراقي إذ تنتهي قصتي بدون طلاق وكأن شيئاً لم يحدث، وعلى أي حال فبعد مراجعتي للنهاية في القصتين: المتخيلة التي اكتشفت بعد عناء انني لم أكتبها أصلا لا الآن أو قبل عشر سنوات وهذا يفسر عدم تضمينها أيا من مجموعاتي القصصية الثلاث... والتي حدثت فعلاً أمس جعلني أفكر مليا في مسألة النهايات هذه: ربما من الأجدى عدم إنهاء القصة أصلاً!...

سريجا حلم الانعتاق

أسوق نفسي وحيداً إلى الشاطئ خلف وزارة الخارجية أستأنسُ بالحركة النشطة التي تتواثب مع رواد المكان نهاية كل أسبوع..، أجلسُ كأحد متصوفي اليوكا في حضرة البحر، الذي بدأ بقذف أسماكه الصغيرة إلى تماس خط الرمال، برغوته الناصعة البياض والباردة نهاية آذار...

هذا الشتاء القادم من أصقاع الدنيا المترامية يأتي بارداً وحزيناً يذكرني بأحزان كثيرة مرت بي..، تنصبُ عيناي بؤرة اهتمامهما إلى المشاهد التي يحتويها هذا الأزرق وما تكادان تألفان منظراً حتى تستوحشُ روحي بذكرى مفزعة: الطائرة التي بدت من بعيد كنقطة صغيرة هائمة بين خط البحر الأزرق البعيد وابيضاض السقف العلوي للسماء غدت ضخمة وكبيرة، لعلها «أيرباص»، ومقدمتها تنقض باتجاه أرض مطار السيب الدولي..، استوحشتُ المنظر: لماذا تنتهي رحلاتنا الحالمة؟..، لماذا هناك نهاية حتمية للرحلة؟..، لماذا لا نكون مثل النوارس، تنام على موجات الأزرق الرحب المسافرة، فقط حالمة ومحلقة؟..، تذكرتُ السفينة الضخمة، قبل يومين، وهي تقف في ميناء مطرح كانت مهيبة وضخمة كعمارة "بيت عُمان" هاهي تضيع في اللج الأزرق وغدت وهي تبتعد، على تماس الأزرق والسماء، شيئاً فشيئاً كعلبة كبريت تذروها عظمة هذا الممتد في الأزل قبل أن تغيب، تماماً، عن ناظري استوحشتُ المنظر: لماذا تكون الحقيقة مرة وجافية؟ لماذا تكون الأشياء، التي نألفها

كبيرة وعظيمة، في حقيقتها صغيرة وفاسدة وهزيلة؟.، ثم لماذا يمتلك هذا الأزرق الكبير المسافر قوة الابتلاع والغيلة؟!...

تستوحش روحي وأشعر بالبرد والضياع..، بغتة دبَّ هرجٌ بين أصحاب سيارتين من مجموعة السيارات التي تشحن الأسماك الصغيرة المنقذفة إلى تماس الرمال بسبب أحقية تحميل شحنة (السردين)..، تكالبَ الخلق متوافدين للفرجة لكنني أيقنت أنني لا أستطيع حراكاً من وضعية اليوكا تلك..، الخلق يشكلون حلقة يتقاطرون مشكلين شبه دائرة ومازالوا يتقاطرون متكاثرين يشكلون شبه دوائر خارجية أحاول التحرك..، لا أستطيع..، أغمض عيني وأفتحهما ببطء...

الهرج يشتد والخلق الذين توافدوا تباعاً مشكلين دوائر نحن الثلاثة مركزها..، ألمح، كيقظة وحلم، أشفاق العيون علينا والدماء التي تنزف من ثلاثتنا بدأ بعضها في التيبس على اسفلت الشارع..، ارفع رأسي بيد أنني لا أستطيع..، تداخل البشر وتعليقاتهم مع صافرات سيارات الإسعاف..، اغمض عيني على منظر جسد (فينود) الممدد في دمائه...

الحلقة تنقبض فترتخي والجو يبدو بارداً جداً..، نشرتُ عينيّ لنقاء الحياة وفاضتا بالدمع..، أغمضتا لمرة أخرى..، بغتة دبت الحياة في جسدي من جديد بقوة لا بأس بها كانت الحلقة آخر ما تذكرته وهي أول شيء وعيته غير أن الأشخاص ما عادوا هم أنفسهم في الحلقة الأولى: حلقة من ثلاثة رجال وأمرتين بملابس بيضاء وثمة شخص يكبر الجميع..، بدأ صديقي حمّاد في التعافي بينما صديقنا المشترك فينود مازال في غرفة التطبب المركز منذ وقوع الحادثة قبل أسبوعين..، أجهزةُ بعث الحياة تشبه دبيب حشرات الليل الباحثة في جسده الأسمر

المستكين وهي تقريبا تغطي كامل جسده: قمع الفم البلاستيكي على الأنف..، أنبوب الجلوكوز على عرش اليد اليمنى..، سلك كهربائي زرع ناحية القلب موصولاً بالنابض الالكتروني..، جسد مسجى بلا حراك: نصف الوجه مهشم..، وبعض العظام انكسرت بفعل دهس السيارة الفارهة بسرعة فائقة من الخلف...

خطوط غير متناسقة الطول تبدو مفزعة ونزقة وهي تظهر على الشاشة الصغيرة..، أمسكتُ بيده وبكيت..، ربما في تلك اللحظة تذكرت فينود قبل تسع سنوات حينما كان يتذكر (سريجا)، بعد كأسين ويغني:

(ميري مهبوب ميريه سنم ^ شكاريا مهربانه كرم)

يبكي ويحترق..، يتذكر: سريجا حلم بعيد ضاع في فضاء المدينة الهندية الكبير..، قمر رحل إلى الأقاصي ولا أمل في عودته..، قمر نشأ معه في حارة معدمة ناسها بالكاد يحصلون على قوتهم..، ظل عاشقاً صامتاً يهيم خلفها ليحفظها من العيون..، بعد سنتين ونصف من العمل في هذه البلاد قرر الذهاب للهند لخطبتها لكنه اكتشف أنها تزوجت من ثري مسن وسافربها إلى العاصمة..، بقي الحزن يعتصره لكنه أكتشف بعد سنة أخرى أن الزوج مجرد قواد يختار الجميلات ويوقعهن في وهم الزواج ثم يرميهن إلى ليالي المدينة الكبيرة..، سافر مرة أخرى باحثاً عنها بين شوارع العاهرات ومنازلهن ولم يحصل لها على أثر في كومة مليون ونصف عاهرة في العاصمة فقط!..، إذ من الممكن كذلك أنها هُجرّت إلى دولة أخرى فالعادة في عمل هؤلاء الاختطاف والإكراه..، رحلت سريجا..، رحل القمر إلى الأقاصي البعيدة وما من سبيل لعودته يا صديقي وعندما أموت أرمي رمادي في البحر فربما تلتقي بروحها في الماء...

قبل سنة من وقوع الكارثة، تقريباً، أحبته (حليمة) الثرية التي تشبه سريجا كثيرا كما قال..، لكن والدها واخوتها بعدما اكتشفوا الأمر منعوها من حبه ولقائه ولم ينفع تهديدهم لوقفه ووقف إصرارها على حبه وكان لابد من وقفهما بشكل ما...

يا إلهي كيف تسنى لهذا الجسد المحمل بالخرافة والحب والابتسام أن يستكين هامداً هكذا دفعة واحدة؟!..، شددت على يده برفق لاحظت زيادة أطوال الخطوط التي تظهر على الشاشة وبدأ الجهاز في إصدار أنات متقطعة..، خلته تنبه لوجودي أبعدت يدي من يده..، فجأة دب الهرج في رواق العنبر واندفع الأطباء والممرضون إلى الغرفة وأحاطوا به في شبه الدائرة: أطباء وممرضون يتوافدون تباعاً وضعوا جهاز الإنعاش الصناعي على صدره تماماً..، الصدمة الأولى..، الثانية: ارتفع بقوة عن السرير..، الثالثة..، الرابعة: استكان الجسد وهمد..، وأظهرت الشاشة الصغيرة خطًا مستقيماً وصوتاً طويلاً متصل النغمة انفرجت دوائر الممرضين والأطباء والدائرة الأخرى الأكثر التصاقاً بالسرير في طريقها إلى الانفراج...

فردتُ رجلي رويداً رويداً من وضعية اليوكا تلك..، ماسحاً بقدميّ المشلولتين على رمال الساحل المتهالكة خلف وزارة الخارجية نهاية آذار حيث بدت الدوائر المنعقدة على صاحبي السيارتين التي تجمع الأسماك الصغيرة في الانفراج قليلاً...

لم يكن قانونياً!

يبزغان ثقالا على الرصيف المقابل لخور بمبه المظلم في سوق مطرح، والذي لم يعد على عهده القديم بعد أن دخلته الأنوار من كل مكان وأضيف لخطوط مشاته على عجل إشارات مرور ضوئية تصدر أصواتاً منبهة المارة إلى الوانها الخضراء والحمراء في إبراقها وخفوتها، يشد أزرهما في مرات قليلة بعض المارة وفي الغالب بعض أصحاب سيارات الأجرة، المتربصين فرصة راكب أخير، وقد اعتادوا المشهد الأسبوعي الذي ينتهي في الغالب قبيل سوق السمك ويبدأ من حيث لم يفكروا في السؤال عنه...

ساقا الفتى ذي الخامسة عشرة يابستان ومسودتان ومستقرتان لفترة وجيزة، لكن بشكل غير منتظم.. تتأرجحان، لفترات طويلة، على المسند المتحرك الذي يدفعه الأب بتثاقل واضح ليس لكون الفتى ثقيلاً بكرسيه كما سيبدو أول وهلة للناظر لكن من يتفحص المنظر، الذي يتكرر كل ليلة خميس على طريق المشاة في الكورنيش الممتد من متنزه كلبوه وحتى دوار السمكة المنتصب قدام مدخل السوق، حتى يدرك أن الأب يبدو أكبر من سنه الحقيقي بلحيته التي لم يعتن بها منذ فترة وبقايا أسنانه السوداء المتفرقة في حديقة فمه هنا وهناك...

يبدآن الرحلة بعد صلاة المغرب وما أن يصلا قبالة سوق السمك يقتعد الأب الكرسي الأخير ويبدأ في لف سيجارتين، بدون فلتر، على

الأقل قبل أن يقفلا راجعين وهما بالكاد يتحدثان إلى بعضهما أو إلى أحد المارة هذه المرة لم يتحرك من جلسته حتى قبيل منتصف الليل...

الرطوبة أقل من المعتاد في مثل هذا الوقت من السنة وثمة هواء منعش يسري إلى الأجساد القليلة المارقة بخطوات هادئة.. كنت أشعر بالرطوبة تسري إلى بعض أجزائي الحديدية القديمة والتي ربما وهنت جراء السنوات الطويلة بدون صيانة رغم أنني أقوم برحلة أسبوعية واحدة معهما منذ سنوات.. كانت أولى الرحلات قبل حوالي تسع سنوات حيث دخل الأب في أول يوم دراسي جالباً ابنه في سيارة أجرة إلى المستشفى ورغم كل تلك السنوات الطويلة حافظا على الرحلة الأسبوعية المعتادة...

لم يشتك الابن، هذه المرة، من الجلسة الطويلة فيما لم يتحرك الأب من مقعده طوال ساعات ظل يدخن ويرمق سوق السمك الذي كان يؤوب إليه يومياً، فيما مضى، محملاً بأنواع كثيرة يهبه إياها البحر بعد أن فوت فرصة الشهادة في المدارس الحكومية التي افتتحت ذلك العام ولأنه لم يتلق أي تعليم في كتاتيب القرآن المتوزعة على مسافات بعيدة بين القرى أو المدرسة الحكومية الوحيدة في مسقط فإن بدايته كانت صعبة في أول يوم درس وظل زملاؤه، الأصغر منه سناً، يسخرون منه ويتندرون على هذا الطويل بتصرفاته وبلادته ولم يكمل أسبوعاً واحداً في المدرسة الجديدة التي افتتحت قريب البحر إذ انسل ذات صباح ليغوص في خيشوم البحر العملاق مجددا!...

بعد سنوات عديدة من تلك الواقعة كانت فرحة الأب لا توصف في أول يوم يذهب فيه ابنه سعيد إلى المدرسة.. لم يخرج الأب إلى البحر

ذلك اليوم،، أوصل ابنه بنفسه إلى المدرسة وعاد يتذكر أيامه الخائبة في الدراسة لكنه شعر بالفرح بمرأى ابنه الصغير الذي تزين بطاقية ودشداشة بيضاء،، فكر الأب أن سعيدا ابنه سيكون أفضل منه حتماً وسيعوض فشل أبيه بنجاحات كبيرة وسيحصل على شهادة كبيرة تعوض الأب عن التعب والحرمان الذي عاشه والأهم أنه سيفاخر به الحارة العلوية والحدرية في القرية الصغيرة الساحلية..، بل وأهله الذين مازالوا يعيشون في قرية جبلية صغيرة ومظلمة بعيدة عن العاصمة...

بعد أقل من ساعتين على عودة أبي سعيد من المدرسة فاجأه مدير المدرسة، بعصاه المدهونة بالسمن البلدي، يصرخ في وجهه راغيًا:

خذ ابنك!. نظف ثيابه من البول والغائط، الذي تيبس عليها، أحضره السنة القادمة لأن سنه صغير ولم يكمل بعد السن القانوني!...

دارت الدنيا بالأب وهو يرمقُ المدير يولي باستهزاء فيما الطفل تعلو ثوبه الأبيض البقع والأوساخ ومن فوقه الذباب يزداد عدده وطنينه..، بدأت أصوات الذباب والحشرات تغلي في أذن الأب..، زاد الصوت طنينًا في رأس الرجل..، واشتعل الغضب نارا..، تصادف وجود (غادوف) قريبا من متناول يده كان اشتراه (للطراد) الجديد..، تناوله في فورة غضبه وهوى به على ظهر الصغير ورأسه عدة مرات...

الفراشات

عادت (ريا)، مريضة وذابلة كزهرة ليمون أحرقتها الشمس. ليتها ما عادت وأعادت جرحاً انقطع نزفه وجف، أو كادت، أنته أن تبرأ...

عادت تحلم بطفلين صغيرين خلفتهما منذ سنوات وقع خبر رجوعها أجبرني على الهرب من الجلسة المعتادة لرجال يلوكون حكايا قديمة ورتيبة إلى أعلى القرية حيث الفلج يدفق في أقنيته المرصوصة منذ لا قبل لكم بمعرفته أيها الصغار (يقول الحاج مسعود)، أكبر أهل القرية أجمع، ويضيف موضحاً لحفيده حَسن أو حُسْن الطالع "كما يحلو له أن يدعوه" : بالماء فقط يحيا الإنسان وعلى ضفافه التي تهب الحياة قامت الحضارات..،

- وما الحضارات يا جدي؟..،

- أمم أمثالكم قامت وازدهرت وبادت..،

يقفز الصغار بثلاثتهم إلى ماء الفلج المنساب منذ لا قبل لهم بمعرفته ولا قدرة لسبر منبعه وراء الصَبِية ذات السبعة أعوام والتي أثار تواجدها فضول الذكور الصغار فقفزوا إلى الماء تباعاً خلفها فيما ظللن أترابها يرمقن المنظر بخجل ورغبة في عناق الماء..، يتسمر حسن الطالع يرمق المشهد بنصف التفافة من رقبته ثم يلوي عوده الغض ويعيد نصف دورة رقبته إلى أصلها متسائلاً :

وكيف بادت ياجدي؟..،

وكان الجد قد ولى ظهره عن الساقية وحسن الطالع وابتعد خطوات كانت كافية ليزداد هيبة وصمتاً...

استغل تواري الحاج مسعود لأضمد رأسي، المثقل، برشفتين من سيجارة ملفوفة بدون فلتر..، أمجُّ الثالثة وأقذف العقب أدوسه بمقدمة النعال أمارس حنقي عليه ذات اليمين وذات الشمال حتى أسمع صوت الحصى الصغير تحتي جارحاً يصم أذنيّ ويصدع أسناني أدوس أكثر فأكثر يحصحص الصوت في رأسي أكثر من ذي قبل وتلتحم مقدمتيّ صف أسناني العليا بالسفلى وأسمع طنينهما في طبلتي أذني..، رويدا رويداً يخفت صوت الصغار الأربعة الذين تقافزوا وراء الصبية وانظرهم يمرحون وينشرون الماء أربعتهم على الصغيرة في حركات عجلى رشيقة ومع فقدي لأصواتهم أرفع رجلي اليمنى بعد دوستن ذات اليمين وذات الشمال عن العقب الذي ذاب...

أسرع إلى الساقية أعلى الصِبْية بقليل أدخل كلتا يديّ في الماء بعد أن شبكتهما على شاكلة نارجيلة مفلوقة طولاً..، أتمجد بالماء من أعلى جبيني وحتى لحيتي الشعثاء يخف طنين أذنيّ واصطكاك أسناني ويبدأ رأسي في اعتياد المشهد وكأن أصوات الصغار قريبة من المنظر الذي غيبته لفترة ما وبدت الصغيرة في النشيج موشكة على البكاء: سأخبر أمي عنك (يا حسون المايع) وتنسحب بخيبة إلى رفيقاتها موليات شطر الحارة في سكون...

انحدرَ النهارُ الصيفي إلى ضآلة الفيء حينها أسرقُ نفسي من بين جلسة كبار السن وأحاديثهم المكرورة والمملة إلى سيدي الماء..، أحبُّ في هذه القرية المسكونة بالطيبة والخرافة والأحاديث الغير مجدية الكثير لكن أفضل وقتين لي فيها هما اللذان أسرق نفسي فيهما بتملص فج وتعثر ظاهر من جلسة كبار السن: في الغبشة إذ تتفتح (أزهار البِّلْ) منعشة هذا الوجود بسر الحياة في ألق وفتنة..، وعند الضحى حيث الصبية يعبثون بسيدهم الماء وهو يبتسم لهم في ود وكبرياء وسطوة حينها انتزع لفة سيجارة ملفوفة بدون فلتر

وعلبة كبريت بها بعض الأعواد القليلة أخبئها تحت لفة إزاري وما أن أهم باشعالها حتى أتذكر التي عادت هذا الصباح وليتها ما عادت.., يبهتني ضوء العود الذي يقترب من وجهي رويداً وتعلوا حدته: أصفر مائل إلى البرتقالي قليلاً تحته ازرقاق سماوي يمتص حبة العود بنهم ويشتعل رأسي ذكرى حيث تلتهب خلايا جلد ظهري بعصا أبي الطويلة: يا سفلة يا قليل الأدب ما فيك حياء ولا حشمة!.., بعدها أجد نفسي في غرفة صغيرة مظلمة يتوسطها ما يشبه نافذة صغيرة. أحسني بلا ظهر أقف على رجليّ لأتأكد من وجودهما لا تسعفانني وأقع جاثياً على ركبتيّ وراحتيّ.., أسمع طرقاً متباعداً على النافذة أعرف أنها ريا التي وشت بي هذا الصباح لأنني قبلتها في وجنتها أحبو باتجاه النافذة: أرجوها أن تخبر جدي لتخليصي...

بعيد صلاة العشاء الآخر يجمعنا جدي، صغاراً ومراهقين، قبالة النخيل الضارب في عروق الأزل نتشكل في حلقة دائرية.., تجيء جدتي بسراج إضافي تعلقه على "الركده". تزداد الفراشات عدداً وتكثر بألوانها الزاهية على ضوء المصباحين.., تتراوغ إلى ضوئيهما لتصل.., تتساقط.., تتتابع في المروق إلى ضوء المصباحين إلى ذروة الوهج النابض بالنور والغيلة تتساقط المجموعة الأولى فالمجموعة التي تلي.., تتساقط متفحمات.., أشم أحتراقها بعد أن يلسعها المصباح ونقعة الوهج الذي يمنح النور والموت.., تتقرع جلود الفراشات الزاهية وتصدر صوتاً أحسبه محذراً للاحقات لكنها لا تنكفئ عن مراوغة ضوء المصباح حيث تكتشف فداحة النور والنار حينها يبتسم جدي بحنو ظاهر قبل أن يوجه حديثه لنا جميعاً:

أنظروا، يا أبنائي، إلى هذه الفراشات.., الفراشة الجميلة الزاهية الرقيقة بطبعها أنانية وحالما تكتشف مصيرها وموتها فإنها تصدر هذا الصوت الذي

تسمعه داعية رفيقاتها إلى اكتشاف الوهج ومحفزة إياها بفرح للاكتشاف فتهلك..،

يحتد ابن عمي ناصر مجادلا: أن الصوت بمثابة تحذير لكن الفراشات التي تليها تفقد القدرة على سماعه من أثر الضوء فتلحق بالسابقات..،

ربما هذا صحيح يا ناصر لكن هناك، يا أبنائي، من يعتقد أن الفراشة تباغت باغتيال الضوء فلا تستطيع تحفيزاً أو تحذيراً..،

جدي الذي كانت هيئته تشبه الرجال الضاربين في التاريخ بلحيته البيضاء الطويلة التي تصل قريب سرته ووجهه الأسمر الطويل الناحل ويديه المعروقتين بالجد والعمل كان كثير الأسفار في شبابه لذلك امتلك المعرفة...

الغبشة وما يليها الليل وما قبله سفر الوهم وكتابات محترقة تماماً كهذا العود المزرورق بناره وكأنه عما قليل حبة تذروها الرياح في يوم عاصف لا يستطيع أن يوقف لعنة النار أو الهروب من المصير..، أضع اللفة بدون فلتر وسط شفتيّ تماماً وفي نفس المكان عند سيدي الفلج قبل أكثر من عشرين عاماً أتذكر ريا الصبية الجسور بكبرياء شامخة سامقة كالنخيل ولم يكن يمر برأسي الصغير أي شيء حين فاجأتها، وهي في الخامسة عشرة، مع إبن عمي ناصر في البيدر يتضاحكان ويتهامسان وكانا ملتصقي الكتف تقريباً..، احمرت وجنتاها وهي تقترب مني وتنظر إلي بخوف حاملة بين يديها جريدة قالت انها نشرت لها شعرا..، هذه الموبؤة حسبت أنها شاعرة موهوبة وحلمت كثيراً بالمدينة حيث ستتفتح كزهرة برية جامحة والمدينة ملاذا لمختلف أنواع القناصة والصيادين الذي يختص بعضهم بالأشكال والألوان..، وريا صادقت المدينة وصدقت فحولها من المحررين واتباعهم من المتنابئين والطامعين وهجرت القرية وغدت تتسلق باتجاه الوهج الذي ظل يراوغها بنوره وناره...

ريا الحب وبهجة الناظر عافت من أحبوها في هذه القرية المسكونة بالطيبة والوداعة وخلفتني بعد أربع سنوات، من زواجنا، شيئاً لا قيمة له بعد أن أحببتها..، هجرتني لتلحق بالضوء متنقلة بين فراش شاعر عاشق!..، وطامع..، وشبه محرر لا يصلح محرراً لصفحة الوفيات..، فراشة المدينة وفراشها: تكرر خواطرها الطفولية في المحافل وبدت ترتفع لتصل النور والوهج ولا تصدر صوتاً وهي تبتسم للآتي يلينها في الصف الطويل نحو الرواغ النوري الذي يعمي عيون الفراشات وهي تصدم المصباح والبقية تأتي إلى الأقنية المرصوصة منذ لاقبل لي بمعرفته حيث يثقل رأسي وأضمده برشفتين من سيجارة ملفوفة بدون فلتر..، أمجها وأقذف العقب أدوسه.، يحصحصني الحصى وأنا أصل سيدي الماء عاقداً يدي كنارجيلة ملفوفة طولا..، أتمجدُ بالماء يتسنمني من رأسي حتى لحيتي الشعثاء داخلاً بين أسناني الصفراء المتهالكة..، مازلتُ لا أنسى الجرح الذي يَنِزُّ برعشة الخيبة والمرارة وأفقد كل العالم إلا الطنين في أذنيّ وأصطكاك أسناني في نوبة لا أدري إلى أي مدى لاحظها الصغار الذين يتقافزون بهرج...

حالما أفاق رأسي المثقل من صدعه وصدعته سمعتُ بكاء الصبية ذات السبعة أعوام تصرخ: سأخبر أمي عنك يا حسون المايع..، وهي مولية مع رفيقاتها ناحية القرية...

أتحركُ بتثاقلٍ واضح، متذكراً التي عادت ليلة أمس ذابلة، من أثر المرض الخبيث الذي لا شفاء منه ولا دواء، لتموت هنا في القرية التي هجرت، ناحية حسن الطالع ماسحاً على رأسه بحنو: الحق بأمثالك لمطاردة الفراشات..، الفراشات التي تنتشرُ، كثيراً في الصيف فقط...

ظهيرة قرر ذلك

حين تَكَسَّ رقبته على ربقة الغل الذي طارده كثيراً وانفرط فؤاده كمداً على عمر ولى على تكية هذا الزمن المفجع قرر أخيرا حل اللغز...

أخيراً قرر حل اللغز وتكوين المعادلة: أي موت فجائعي مقرف سيكون حتماً أحن من عيشته هذه، أي اندثار ما خلد أم لا سيكون أرحم من تكرار فشله الدائم رغم استماتته في بارقة نجاح تلوح ولو من بعيد لكن ما حدث تلك الظهيرة فجائعي أكثر من موت و أخزى نهاية من عيش مضى أو سيأتي...

أنا الضحية الأولى في مخططه الذي قرر أن يكون كأنه محض صدفة أو سوء طالع لكنني ورغم احتمالي(للرجل) كل ذلك العمر قِصَ لي: أن أكون الشاهد لمتمة عرسه إلى غياب جديد أشد عسفاً فقبل أكثر من سنتين رماني الرجل كشيء زهد منه كما زهد من حياته.، حيث ظللت لا أبارح مكاني تدوسني نعالات القوم وتهرسني روائحهم وخشونتهم لاكون الضحية الأولى في مخططه البائس...

ها أنا اليوم أعود أكثر بريقاً وفتنة.، عصر أمس حينما أوشكت مباراة كرة القدم بين فريقين من الدرجة الثانية في ملعب المعلمين على الانتهاء انتبه إلى وجودي شاب لعله هرب من مستوى المباراة أو حرارة الجو لكن إحساسي بأنني سأتحرر أخيراً اراحني كثيراً كما أن انفلاتي أخيراً من ركام الأتربة والحصى والمداسات ذات الأحجام والأوزان

المختلفة التي رامني لها الرجل أنقذني منه هذا الشاب المقبل على الحياة والذي برقت عيناه بفرح واحتضنني بشوق من يد الصائغ في سوق الذهب الداخلي بمطرح العصر التالي مباشرة...

ها أنا اليوم أحمل تاريخاً جديداً بعد أن نفضت تاريخ الرجل القديم الذي تلبسني كثيراً وبكشطات متوالية وسريعة من يد الصائغ في سوق مطرح اضمحل إلى الأبد مثل صاحبه الرجل الأول الذي قرر ذات ظهيرة أن يكون ناجحاً لمرة أولى وربما أخيرة في حياته فعند الساعة الواحدة والنصف من ظهر ذلك اليوم، الذي ألقاني فيه كشيء زهد منه كما زهد من حياته، بدأ في ارتشاف شايه الأحمر بهدوء وامتص أثناء ذلك (أصبع دينهل لندنية) كآخر مذاق فاخر بعد وجبة (برياني سمك شعري) في مطعم آسيوي بروي...

صعد بعدها إلى حافلة النقل الوطني (أبو غزالة) وترجل على جانب الطريق السريع الموازي لمتحف الطفل وليتفادى أي شاردة قد تعطل نجاحه هذه المرة حزم أمره بحيث لا يترك مجالاً لصدفة ما: خطا خطوتين بمحاذاة الطريق السريع باتجاهاته الثلاثة وتسمّرَ ما بين المتحف والملعب (أقرب قليلاً إلى الملعب) على خط الشارع المتوهج بالشمس وعما قليل السيارات التي تومض إلى نصابها سراعاً في أوبة الموظفين من أعمالهم عند الثانية والنصف. فكر في أوج لهاث الكتل الحديدية على الأسود الإسفلتي بسرعة تفوق المائة كيلو متر وعند الثانية وخمس وثلاثين دقيقة سيغمض عينيه وستكون المعضلة قد حلت وضمن النجاح: نعم سأنجح لمرة أولى وأخيرة فقط. ساعدني يا الهي!...

إذ ذاك تمتم: أخيراً توصلت إلى تركيب المعادلة وعرفت حل اللغز:

لابد أنه الفشل!..، حتماً أنه الفشل!..، حسن سأنهي كل تلك المشاكل والذكريات الخائبة وسأنجح أخيراً..، أعاد الرجل شريط حياته وامضاً ومختصراً (كل ما حصل عليه كرتونة المرحلة الإعدادية) التي كفلت أن تهب له درجة بسيطة...

فشل الرجل يحدق في كل شيء من عمره..، فشل أن يكون شاعراً كما زعم ومفوها وحبيباً عاشقاً وفشل أن يكون كريماً أو مقترا (فما يأتي من يمين بركة الهبة الوظيفية يذهب شمالاً إلى سلفية البنك وبنك الإسكان وأجرة المواصلات ومصاريف الأولاد والبيت)..، فشل مع اليسار وفشل مع اليمين وفشل بين بين فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء مذبذب بين ذلك..، وللفشل وجوه عدة ومواسم يريح فيها ويرتاح من بعض الوجوه لكنه في حياة الرجل ذاك وجه واحد بدون مواربة وبدون أقنعة يأتيه الفشل من بين يديه ومن خلفه وكأنه وسام فصل على حياته هو فقط..،

غير أن الفشل في تلك الظهيرة كان له مذاق النهاية التي قرر أن يمضي فيها قدماً هذه المرة بعدما انتفخ بطن ابنته، المراهقة التي تقوم على خدمته في الغرفة التي اكتراها بعشرين ريالا..، تمنى لو أن المرأة التي تزوجها لا تزال حية لكنها غرقت مع طفليه وظل يكتري المنازل هو والصغيرة بعد أن أحيل إلى التقاعد المبكر وذهب كل ما يتبقى من المعاش شمالا ناحية الذين يمتصون البقية الباقية...

أشترى الرجل قبل أربعة أشهر من تلك الظهيرة غرشة ونصف "تكيلا الفقراء" من دكان الهندي (آشوك) بريالين وظل يحتسي عطر ما بعد الحلاقة ذاك منذ الظهيرة وحتى آخر الليل...

عاد إلى البيت بعد منتصف الليل مترنحاً كانت الابنة المتبقية لديه والتي ستنهي الصف الثالث الإعدادي هذه السنة، هي البارقة الوحيدة التي يرفعها ضد الفشل والبصيص الذي يدفعه للحياة تنام على حصيرة مهترئة على بطنها..، تقدم باتجاهها..، كان الغطاء قد انحسر عنها..، بان عن فخذين ناعمين، ونهدين كرمانتين بلون البرونز..، كانت رائعة وغضة..، اقترب الأب منها قليلاً.. قليلاً..... في الصباح لم تذهب الصغيرة إلى المدرسة وظلت تبكي...

فشل محدق في كل جوانب حياته: في كل شيء فعله وفي كل شيء سيفعله لذلك قرر أخيراً أن ينجح مهما كلفه الأمر وهذه المرة والأخيرة فقط قرر أن ينجح وليتفادى فشله حزم أمره وأصر على النجاح..، خلعني من بنصره الأيسر وطوحني بعيداً باتجاه ملعب المعلمين وظل يحلل ويستكشف في السيارات التي خف وطؤها على الأسود الاسفلتي عند الثالثة وخمس دقائق حين انتبه إلى منبه «ميكروباص» أندس داخله إلى وجهة ما...

....

....

إليك أيتها البذرة الرائعة التي نبتت في صدري ذات ربيع..،

خرجت الكلمات من فم سامي سريعة ومقتضبة لكنها واضحة وصارمة..، كنت قد اتصلت به هذه المساء لنلتقي على غير لقاءاتنا الأسبوعية كل خميس مع صديقنا الثالث عاصم محافظين على صداقة قديمة تعود إلى مرحلة الدراسة الإعدادية قبل أكثر من عشرين سنة فهم من عجلتي في الحديث أن الأمر عاجل ولا يستدعي كذلك دعوة ثالثنا "دون جوان" الشلة كما يحب أن يطلق عليه..، نحن الثلاثة نبدو على غير التوافق الذي ينبغي لشلة أصدقاء مترابطة: أنا وسامي نبدو أقرب إلى الحالمين الرومانسيين لكن سامي أكثر رومانسية وهدوء كأنه أحد كتاب القرن الثامن عشر كما يتبدى في نبله فرسان القرون المنقرضة وعلى عكس مظهره، الحزين والهادئ، يتمتع بسخرية لاذعة من كل شيء تدعمها معرفة واطلاع واسع لشتى المعارف الإنسانية والأدبية تفوق بكثير ما يمكنني أن أتخيله بل أنه يفاجئني في كل لقاء بمعلومات وأفكار جديدة...

في ذلك اللقاء المضطرب، على الأقل من جانبي أخرج سامي مخطوطة بخط يده: إقرأ! هذه القصة مسودة قصة حقيقية وقعت لي بالفعل لعلها تفيدك في حل مشكلتك أو في كتابة قصة ما كالتي تكتبها

للجرائد منذ سنوات بدون عائد مادي!...

كانت تلك مفاجأة من العيار الثقيل جداً سامي يكتب رغم قناعته التي يكررها دائماً بان الكتاب هنا كائنات غير مرغوب فيها أو بعبارته الشهيرة حشرات تهرسها نعال العوام وتتبرز عليها الهوام! حين سلمني مسودة قصته كنت قد انتهيت من سرد حكايتي بتفاصيلها المملة التي لمحت له عنها سابقاً والتي استمع إليها بصدق واهتمام بالغين كعادته متوخياً أن لا يسقط منها حرفاً أو تفصيلاً ولو مملا عن الفتاة الجميلة التي تعرفت عليها في جامعة شمال البلاد واستمرت علاقتنا لمدة سنتين كنت خلالها رب أسرة حقيقي: زوجة وولدان لكن يبدو أن بعض الأمور خرجت عن السيطرة وضعي كرجل متزوج حقاً ووضعي كعاشق يبدو غير طبيعي..، قد لا تبدو المسألة ذات أهمية غالباً لكثير من شعوب هذه الكرة الأرضية مادامو يحصلون (على زوجة طيبة وصديقة وفيّة في ذات الوقت) لكن الأمر بدا لي صعباً وحرجاً و لا أجد له مخرجاً إلا وجهة نظر سامي...، قرأتُ مسودته التي لم يعنونها بعد:

(عدت ذلك العشاء متعباً وضعيفاً..، ليس لدي الرغبة في مفاجأة أخرى لهذا اليوم الغريب..، ساقاي تهتزان كخيزرانتي قصب..، لا أدري إلى أي مدى لاحظت زوجتي ذلك الاهتزاز والماء الغليظ المتيبس، ببقعة واسعة، على دشداشتي وإزاري..، أحسُ بقيته الرطبة في داخلي تفضحني، عما قليل، لولا ستر السماء عليّ ورأفتها بجعلي مبلولاً بمائها، الرحيم، الذي لم أتحد الخروج في مطره منذ سنوات خلت..، أرغبُ في حمام ساخن يعيد لي دفئاً مفقوداً وضميراً طويته اليوم بعد اثني عشر عاماً أو يزيد..، آه من اللحظة كيف انفجرت، مرة واحدة، على

حين غرة في تلك اللحظة العارمة، كهدير السماء فوقنا، انفجرت المرأة بجنون..، أبعد كل هذا العمر يا رابعة تنفجرين، في وجهي، راغية هكذا دفعة واحدة؟!..، لم أكن أتصورك بكل هذا الجنون والعنفوان!...

بدأت القصة وانتهت إلى نتيجتها دفعة واحدة كانهمار الماء في عصر الجمعة الأخيرة، من ذي القعدة الماضي، حيث كنت أراقب الوضع، من النافذة المطلة على الشارع الماضي ببشره وكائناته للالتجاء والتحصن داخل أقبية إسمنتية مملة، وقد استقامت خيوط الماء، من المزاريب العلوية ناحية الأرض العطشى، مشكلة شراجاً صغيرة سرعان ما زاد واردها والتقت متحوقلة ناحية البحر القريب..، يا أيتها السماء لطفك..، البيت قديم والأسطح متشققة، لماذا كل هذا الانفجار، دفعة واحدة، والذي لم يترك لي فرصة لعمل أي شيء لمواجهتك؟!...

خلا الشارع من كائناته، تماماً، حين نزّت زوجتي إحدى يدي عن شباك النافذة المعقودتين عليه:

هيه! مالك؟. ما تسمع؟..،

وقبل أن أجيب باغتتني: زوج رابعة تأخر قم خذها للبيت..،

يا إلهي الآن؟..، أنا لا أحب المغامرة في هذه الأجواء لكن لابد من هذه المجاملات الغبية ولعل عطاء السماء ينحسر عما قليل ونخرج..، نصف ساعة والأرض تطلب المزيد: الأرض حانة..، والأرض تحن حين تكون عطشى ومحلانة هكذا يقول العارفون أما أنا فتخيلت رجلاً يحن إلى أرض جديدة ونساء جميلات ويغني لطفل صغير في المهد أو لعجوز لم ير وطنه عمراً ويغني "حن يابه حن.. حن وأنا احن" توقفت

مباغتة السماء وإن بقيت ترسل نتفا متقطعة إلى الأرض التي بدأت، قليلاً، في الارتواء...

اقتعدت رابعة، كعادتها، الكرسي بجانبي. هذه لم تكن المرة الأولى أو المائة التي نخرج فيها لوحدنا محافظين على أخوة، ضمنية، منذ كانت صديقة لأختي، في المرحلة الابتدائية، وهما تصغرانني بحوالي تسع سنوات ورغم انتقال أختي، للسكن مع زوجها، ظلت محافظة على زيارتنا وعلى علاقة حسنة مع زوجتي فيما بعد.. شعرت بالبرد قليلا لكن الخوف أكبر أنا لا أحب المغامرات والأجواء الصاخبة وعلي الآن أن أقطع حوالي خمسين كيلو متراً بالسيارة مع رابعة لأصل بها إلى أولادها وزوجها الذي يضطرني، بتجاهله لها في كل مرة تأتي لزيارتنا، أن أعيدها.. بدت قوية وواثقة، كالعادة، لكنها بدت أكثر حزناً، كذلك، ولم تتحدث كثيراً، كعادتها، بدا لي الجو أكثر ألفة وهي صامتة نستمع صوت المطر الذي انثال بقوة وحدة.. ما إن قطعنا نصف المسافة حتى زاد انهمار المطر من جديد، أكثر فأكثر، وما عادت مسّاحات السيارة توقف زحف الماء.. السيارات القليلة تمرق بهدوء أما أنا فلا أحب المغامرة.. اتجهت بالسيارة إلى اليمين عند حرش شجري، أقيم مؤخراً، يطل على مطار السيب.. طفرت عيناها، بالدمع بعد توقفنا وانخرطت في نشيج مر.. أمسكتُ بيديها محاولا تهدئتها. التصقت بصدري كقطة ضالة: أنا أحبك يا سامي!...

يا إلهي! ليس الآن بعد كل هذا العمر يارابعة.. بعد أن صار لدي أكثر من نصف درزينة أولاد ولديك ربع درزينة اطفال كذلك.. الآن يا رابعة ينفجر كل شيء، فجأة، وأنت تعلمين أنني متزوج منذ سنين..

الآن بعد أن أصبحت مترهلا واقترب من منتصف عقدي الرابع الذي غزاني بشعره الأبيض ولم تعد تجدي معه كل صبغات الحلاقين الهنود في مسقط وروي..، الآن يا رابعة!..، لا..، لا أستطيع ربما كان يجوز ذلك قبل أكثر من عشرين سنة لكنك حينها لم تمنحيني الفرصة لأعبر لك عن حبي وها أنت، اليوم بعد أكثر من خمس سنوات من زواجك بحميد، تعترفين بحبك! لماذا الآن لماذا؟..،

جفت دموعها على خديها بلون القهوة وثم رائحة هال تتضوع من جنباتها:

- أنت تعرف هذا الجو الماطر يهيجني..، يصيبني بالضعف ورغم ذلك يجعل شعوري رقيقاً وشفيفاً حد أنك ترى ما بداخلي..، نعم أنا أحبك منذ كنت مراهقة، ومازلت، من أول يوم رأيتك فيه وكنت حينها أخطو أول خطوات إكتمال المرأة فيّ..، اكتشفت الشعورين في يوم واحد: الدماء التي انبجست من جسدي، في الصباح، وحبك الذي داخلني المساء ذاته..، لكن أنت تعرف ان أهلك ماكانوا ليرضوا أن تتزوج بسمراء، مثلي، تعبث لهم بالنسل ليختلط فيه عرق العبودية السوداء!...

- لكنني أحببتك، أيضاً، بكل صدق ولولا فارق السن بيننا لأصبح الأمر مختلفاً..، ثم ان أهلي ليسوا كما تتصورين وإلا ما معنى صداقتك وأختي سامية؟...

اللعنة ليس ثمة فرق بين لونين لكن لو باستطاعتنا، فقط، أن نروض هذا الواقع الجامح الغرور..، أحبك برغم اختلاف لونينا وربما عرقينا..، الحب يسوي بين الأضداد ويصالح بين النقائض..، أحبك، ومازلت،

رغم الأطفال والعمر الذي ذهب هباء وسأحبك حد المتبقي من عمر مرق بزيفه وخداعه...

استوت بكامل عجيزتها في حضني: ريق عنابها اللزج في شفتيّ المتيبستين من المفاجأة، ويداها تطوقان رقبتي..، أحسست بريق فمها حادا وشهوانيا، ضاجاً بالرغبة والحياة، يشبه حياة جميلة قادمة، لا محالة والسماء لا تزال تروي أرضاً عطشى طال انتظارها للمطر منذ الشتوية الماضية)...

كنت قد اقتنعت تماماً بكلمات سامي السريعة والصارمة: إذا رغبت في انهاء علاقتك بفتاتك الجامعية لابد أن تجعلها تكرهك جداً بقدر الحب بينكما، كان الحل السحري بين يديّ ولم انتبه له مطلقاً..، مجرد اتصال ليلي متأخر مزعج احشد فيه حقارتي وحقارة العالم وسفالته بعدها ستكرهني الفتاة بقدر الحب الذي احمله في قلبي ولا يزال..، أعرف أن أشياء كثيرة لا تتحقق لهذا الإنسان في عيشته كما يقول سامي ولا أعرف إذا ما كانت قصته تصلح للنشر في إحدى المجموعات القصصية التي تخضع لرقابة صارمة من الموظفين الرسميين؟!...

أمكنة العويل والفرح.. أو الحكاية إلى الياء

إهداء: العزيز محمد القرمطي.. التهبت ساعة الرحيل..، وبغتة شاخ الصمت..

(1)

أ/ قرية

في العطلة الأسبوعية القادمة سيحطُ (السنيسلو) بمعرفة اسلافه القديمة على ذات الصوار الذي ضم بعض قطرات من ماء وطحالب خضراء ذات غبشة موغلة في الذاكرة، ومجموعة صبية يتربصون بمجموعة الطيور من مكمن قريب غير منظور حيث يفاجئون أسلافه بعذوق نخل يابسة من خلف ساقية الفلج على ذات نقطة الصوار.

تتعضنُ الأجسام الصغيرة، وتقع على قفاها، وبعضها يعلق بين يبوس العذق الطويلة عطشى ترسفُ نزعها المتيقن، وحب الحياة المتمادي في رغبة التحليق لينفرج المشهد عن تاوثب بقية مجموعة الصبية ممطية الساقية بزعيقها وهرجها لالتقاط البقية التي خدشتها ضربة العسوان بداية.

في العطلة الأسبوعية القادمة سيحط طائران صغيران مع سربهما يبحثان عن صوار ميراث الأسلاف الذي اختفى منذ سنوات عدة.

ب/ شاطئ

فيما يشبه تقادم الذاكرة تتمسحُ قدميّ طفلٍ شبه عار بحبيبات الرمل الملتهبة أو يومض ببريق الخوالي عن القوارب ذات الخشب المجلوب من الشواطئ البعيدة المقابلة للساحل، أو القوارب المصنوعة من مخلفات أعالي النخيل.

تهمسُ الذاكرة أو تكاد بلزوجة الزمن الممتد ما بين المتحقق والمتأمل فيما يشبه التقادم تنفتق الذاكرة عن جحيم المعرفة الأولى، والأشياء الخليقة بالنسيان: الحب المزعوم لنظرة عجلى من عيني مراهقة وطفل بدأ خط شاربه يخضّر وبعام تنقضي أواخره لا تلتقي وأوائله.

كانت الظهيرة مذاقاً آخر ملتقى هذه الظهيرة لطلاب يؤوبون إلى بيوتهم وطالبات يلجن ذات الصفوف، وفكّــرَ الطفل الذي بدأ شاربه في البروز أن يمعن النظر ملياً في عينيّ فتاته ملقياً بحقيبته المدرسية ونعاله (الباتا) ليتيح المجال لأصابعه التمسح بحبيات الرمل.

وفكّــرَ بعد أن بدأ في حلق ذقنه لأول مرة أن يلج رمال الشاطئ التي بدأت كأنها الحجارة، والأزرق أطاح بالفتاة إلى عمقه في نوبة من جنونه المتكرر.

ج/ ضاحية

الثلاث الأول من كانون الثاني ها قد مر أسبوعان، والصحراء البعيدة التي لفظت حشاشتها إلى أرض أخرى كيف تكون؟ كيف تتخيلها الآن؟ براقةً ومنسية! رحبةً وحزينة! مفاوزُ يعتورها الكسل والخمول، ويعتليها الكسالى المتسلقون من البرجوازيين الصغار.

هنا أيضاً ذات الملمح. لا شيء يفرق البتة بيد أنك ياحشاشة كبد الصحراء في ذاكرة المنسيين تبيتُ وحيداً، المرأة التي تعرفت عليها حال وصولك لم تفك وعدها. ها أنت تقف وحيداً في شقة سينخرها البرد عما قليل: حجرتك المستطيلة بجهاز التدفئة الذي تعرفت عليه منذ مدة يسيره، أوعيتك الملقاة بإهمال، صفائح علب الامستل، زجاجة التوما، كتب الشعر، دفتر المحاضرات، وأنت كلكم ستغشاكم سنة الهشاشة والموات إذ لا مناص من نفس امرأة كي تدفأ وتنفض حدة الصقيع الذي بدأ متسللا من خلف النافذة التي رفعت (أبجورتها) حالما بالصحراء البعيدة.

كلُّ شيءٍ في هذا العالم دفأته أنفاس إمراة حتماً الاك. أنت كما الخارج: برد وصقيع، وضاحية الرشيد كغيرها تحولت إلى شبح أبيض، وما زالت قطنيات الثلج تهمر هاصرة اسفلت شوارعها. وحدك في الغرفة يغزوك البرد، وتستفيض في عصر ذاكرتك لصحراء بعيدة ممتدة في اليبوس.

ها قد انقضى كانون الثاني بشتويته القطنية، وأنت تنقضي بذاكرة خربة عن صحراء بعيدة، وكأس (بابونج) يدفئُ صدرك المتكلس.

د/ حاضره

تجترُ أمسية البارحة وأنت تجتاز رواق (سوق الحميدية) المؤدي إلى الجامع الأموي الكبير حيث السُياح يطوفون بالضريح حفاة مدللين على عمق تفهمهم للحضارة الواحدة! امتعضت من هذه المخلوقات المبتسمة دائماً لتأنيق صورتها، وإنها سيد حقيقي منتظر، ومنظر المسجى كشاهد آخر على الردة.

كسربٍ فرقته طلقة طائشة تجفل الصور والأخيلة أعلى كتفيك، وتترنح من نشوة عارمة مرتك الليلة الفائتة. تختلفُ يساراً إلى حمام نور الدين الشعبي متأملاً أن تسلخ عنك فروة رأسك النتنة، وجلدك المتوحم رمال شاطئ بعيد، أو صحراء غيبها التية، والمدن المفترشة أنتها وعيولها!.

في زحام الخارج تصطف النُزل الرخيصة والقذرة المصطبغة بأسماء وأحداث عظيمة . تتذكر قذارتك التي خلفتها قبل قليل في حمام نور الدين وأنت تترجل من السرفيس تتخبط في الممشى والزحام وتضيع خطواتك، وتبقى الوجوه بدون تضاريس تُرممُ ذاكرتك صور الأصدقاء القدامى كموزاييك مبتوره. كموزاييك مبتورة فقط تفقدها في الماشين، وتُطل من واجهات المحلات المنمقة قرية بعيدة يفصلك عنها سنة ضوئية كئيبة.

(2)

هـ/ قرى

راقب السرب من عليائه في القمم قطرات الماء المتساقطة من صوار ميراث الأجداد. يا إلهي! كيف يخضر الطحلب اليابس، ويورق منتفضا بنشوة متنفسا عناصر الماء؟.

كان خماص بطونها، وعطشها يحدثانها بهذه الفرصة في أصيل لن يتكرر لها مطلقاً.

القرى النابتة كارخبيلات قديمة لم تطؤها أقدام الغزاة الرُحّـل تتوزع بإهمال غريب فيما طائران يتقدمان سربهما، ويصعدن إلى الأعلى، والبعيد عن القرى المتبعثرة هروباً من ميراث أسلافها والأطفال الصغار الذين يتربصون بالطيور والفرح! حينها اكتشف صغار القرى أن العصافير هجرت ميراثها وقمتها.

و/ شواطئ

ملقاة على مراسي الأُلي رحلوا على الرمال المتهتكة بشمس الظهيرة حكت عن منازل بعيدة، وجزر تاه فيها ربابنتها. كانوا يغادرون بكسرات التمر، وقبضة ملح (سفي) لطرد النحس، ويتوهون في مفاوز بحرية عميقة بعضهم يرجع بقبضة قرنفل، والسواد الأعظم منهم يقطنون جزر الثوم والتوابل. هناك يظلون متعلقين بحلم الرجوع، ويرسمون رمال شواطئهم في مغارات الدهشة المنقرضة.

ملقي بجحيم المعرفة البكر تعود محملا بالزمن الذي يشبه انفجاراً ما، ورأسك ينبت عن مكانه باحثاً عن شواطئ جديدة لم تصهل فيها مراكب قط. شواطئ دافئة كصدر أمك، وكاتساع رمال أخرى لم تبضع فيها خوازيق الغزاة والتجار.

يحلم كبحار مهمل بشواطئ لم تكن. تمرغها الشمس والملح، ويمتطيها هو فقط كاشفاً عن ساقين كلهّما الترحال تاهتا في مدارات متشابهة. يقول: سألقي بجسدي المهشم من كل شيء إلا بقايا زفير وشهيق. سألقي بهذا المتكلس بمداراته الرتيبة والمتعاقبة. سألقي به، واقذف به إلى عمق الأزرق المتمادي في غفلته باحثاً عن فتاة تمتلك إنبعاث الموج، ورقص البحارة الذين ذابوا كقطع ملح (السفي)، وقد تحولوا إلى مراسٍ متهالكة تعتلي صداها المتقادم الضربات القادمة من شواطئ قديمة غافلة.

ز/ ضواحي

تلمح «مي» الصغيرة تحتضن حقيبتها المدرسية تحت الكرم المخضر بأشعة شمس الصيف الخارجة من شتوية ثقيلة، وهي تراوح مكانها فيما أنت تبحث عن شفرة لسحق زغب وجهك تفكر في هذا الصمت الثقيل وقد امتد فيك مطبقاً على حلقك.

تفتح باب الشقة الأرضية تركض «مي» ملقية برأسها الصغير على صدرك الحزين كصحراء خربة أثقلها انتظار المطر.

- عمو بديش تروح أبيش حدا هون بديش أكون لحالي.

تهدهدها، وأنت تمسد خصلات شعرها، وتغني لها أغنية جميلة في المهد. عبرتك لتوها من هناك من البعيد بصوت لا يشبه أصوات البشر:

هيه هيه مالك حبيبي تهي

والملك حالك من زنجبار وجي

تؤنسن أخيلتك في طريقك إلى محاضرات: "السياسة الخارجية للدول العظمى" ، و"النظم السياسية المعاصرة" تتحسس الشعر فوق راسك باحثاً عن خطى تقودك إلى ضواحٍ أخرى غير متصحرة ويابسة تحلم بالمطر ومدخل أكثر إقناعاً إلى "مبادئ الحضارة"..، وتغيب من ثم صورة الصغيرة مي..،

ح/ حواضر

مدن «تتشابك في المدن وجوه تختلط في مسراك بين حواضر هذا الوطن. كل شيء شبهٌ لرحيل أدماك كثيراً، وأنت تعود متبعثر الخطى.. مرتعش الممشى شاهت كل الأقنعة المتحركة، وبقيت تلج الأمكنة واحدة تلو واحدة تغزل الفصول بجناحيك حالما بالدفء والمرأة والسلالة القادمة».

ممشى يقود إلى كل الفصول، ومدن كانت حواضر هذا المتقلب بين سواحله ومحيطه تغزل خيوطها في مسام جلدك المتقرح بالشمس والرحيل.

يمتزج العمران بالوجوه المكلومة في مطاليبها الصغيرة التافهة وهي تقفل إلى بيوتها حالمة بابتسامات الصغار، واحضان النساء الدافئة. تفكر في النساء على أنهن جزء سفلي يزهره الشد والجذب تماماً كالآخرين أيها العقيم الأخير في سلالة منقرضة.

في هذه الحواضر التي تنعق لك برحيل شبه متقادم: الزحام، الوجوه الضائعة، الواجهات، وصحراء بعيدة منسية موشاة بالمجد والعظمة هكذا أنت تختلق سر وجودك، وتبقي على بقيتك الحالمة تعطيها نكهة البقاء والتشبث في حواضر رفضتك وسلختك عنها مدحورا أيها الطائر الباحث عن شمس حانية و امرأة تحتضن خلايا سلالتك.

(3)

ط/ العويل والفرح

قلت له:

أنت آخر السلالة المنقرضة أنت الحبة التي انفرطت عن سلالتها، وظلت تائهة في مسارب ضبابية انت التائه في الأمكنة يا «علي بن سعود» تركلك الحواضر على مؤخرتك متسكعا، وتلفظك البحار إلى شواطئها طريداً مذموما تقتنصك الضواحي كجرو أجرب، وتشبعك القرى رجما وطعنا حتى تقع على قفاك!

أنت يا «علي بن سعود» آخر السلالة التي ستمنح صولجانا من حيوات كثيرة، وجزرا ستورثها سلالتك القادمة.

قلت له: أيها المتوجهن ستكون النار والماء، وتكون الرجل والمرأة، وتكون النسبة والمطلق سأتوجك شعار المعرفة، وأغلفك دثار الخلود.

أيها المتوجهن تخلت عنك سلالتك لأنك تمتلك نقيضك داخلك أنت لا تذكر كيف حاروا في جنسك، وكيف غنت أمك ونساء قريتك البعيدة المنسية حين ولدت:

هوووه هوووه .:. منز عليْ

جتنا بنيه .:. وقلنا صبيِ

ستقتفيك الأمكنة، ويتعبك الترحال أيها الغارق في شروده، والمتعاظم في توهجه!

قالي لي:

لقد جنت السلالة على بذارها، ولن أجن على أحد قط أيها العجوز المتدرسن في هذيانه وسرمديته.

قال العجوز لي:

أنت منذ اليوم رهن قرارك بيدك أن توافقني، وباستطاعتك أن تخالفني.

قال: ستحمل في يدك اليسرى مشعل الاخضرار والحيوات الكثيرة، وفي يدك اليمنى تحمل بذار سلالتك هكذا تطأ الأمكنة حاملاً استمرارك......

قلت له: ان الحياة احتضار مؤقت بالنسبة لي، والأمكنة مشاع.

قال: أنت طائر الرغبة تحمل في حويصلتك السلالة، وترتقي الامكنة ذاهبا في شقائك (تولد وحيداً، وتعيش وحيداً، وتموت وحيداً)

(4)

ي / تحليق

يموتون من عجزهم ينفقون في تقوقعهم وجفافهم تضج بأنفاسهم الأزقة والسكك، وتغط خرائب بيوتهم في شخيرهم وتجاعيدهم الملأى شقوقها بالشمس والطين هي علامة الحياة المؤكدة عليهم.

على مضارب القرى المطلة كسهوب مفروغة في أنفاس آدمييها تقتنص الصحراء شهوة اتساعها وجموحها، وتسهب في ترميم غيبياتها حتى قبيل دخول الليل حيث يعود سرب من طيور صغيرة الحجم تجاهد في خفق أجنحتها المنهكة عن سماء وفضاء متعاظمة في التيه والشرود يتوسطها طائر انفجرت حويصلته بودق الشوق واللوعة.

يقع على صوار ميراث الأجداد نابشاً بمنقاره الصغير في الطحالب الميتة، وريشاته الرائعة تتوزع على المطراح، وينقلب على قفاه ويتخلص من حويصلته في بطن الأرض.

قال الطائر العجوز بعد أن انقضت العطلة الأسبوعية: إن الطائر تصاعد في رحم أمه التي وهبته حياة واحدة لم يكن نادمًا فيها على شيء قط.

سقطة الحلم!

حلَّق عالياً فارداً جناحيه للفضاء خارجاً من الغبشة الأولى نحو حمأة شمس الصيف. بدت حانية اليوم حين اخترق شفيف الصمت صوتان: طلقة من بندقية صيد يدوية اخترقت مقدمة العصفور الصغير، الذي كان يحلق عالياً، اقرب قليلاً إلى تحت رقبته نثرت بعض ريشه الزاهي ونفذت من صلب ظهره اقرب قليلاً إلى ريش ذيله الذي انفرد كمروحة على شكل نصف دائرة وصوت: الله أكبرُ... فانتفض الجسم الصغير راقصاً وارتعد وارتكس...

السماء عالية والأرض بعيدة. الجرح مازال غضاً. الهواء وحده: نجمة الريح الأثيرة.،، الأغاني العظيمة لأطفاله في المهد.،، النساء الثواكل والنساء الارامل يخرجن من هذا الصباح الرصاصي المثقل بالبارود وحده، في انفرادات ريشه حين ثقبته الرصاصة فارتعد الجسم الصغير راقصاً وقد حملته الرياح سابحاً إلى نجمه "الهلليلويا" والترانيم المُؤمَنِة، ذهب بعيداً حيث السماء عالية وبعيدة.

مدَّ عنقه بميل إلى الأمام وطوى جناحيه منعقداً بتكورٍ كقبضة اليد.

بدا الطائر الصغير في تكوره أكبر بقليل بقليل من قبضة اليد.. ثم تالياً لم تستوعبه القبضة ذاتها.

مضى في الارتفاع ناحية الشمس ورغم الهدوء الذي كان يتلبس القرية انقذف الناس، على حين طلقة، وهرع الماضون لصلاة الصبح فرادى

ليلتقوا الذين يفركون عيونهم من أثر الليل حينها صرخ طفل صغير، في وجوههم، بحدة.

- إنه شاه زاد. شاه زاد من أطلق النار بداية!

بدا شاه زاد تائهاً ولا يعرف ماذا حدث بعد أن انسلت من يمينه بندقية الـ "سكتون" كان أضعف من أن يلتقطها في تلك اللحظة.

الناس الذين اكتملوا في نفرتهم من البيوت السعفية المقيظة والمسجد الصغير إلى وسط القرية اندهشت عيونهم ووقفوا عاجزين وقد ران الصمت عليهم. بعدها حدثت جلبة عظيمة ناحيته "المال" والمزارع التي ابتناها القاطنون الجدد لذريتهم. بدأت الجلبة في الاقتراب، شيئاً فشيئاً، ناحية تجمع الأهالي المستسلمين لشاه زاد وجماعته الذين جلبهم بعد أن استقام له الأمر بيسر...

بدا الصوت في اقترابه ناحية الصفين المتقابلين من الأهالي شديد الجلبة يزيد الموقف رعباً. التجمع بصفيه هزته الجلبة التي توافدت من كل أرجاء القرية الطينية. فزاعة شابة تقدمت جيش الفزاعات تحمل على أعناقها عصافير صغيرة زاهية باتجاه وسط القرية حيث اكتمل جمع في القرية صغاراً وكباراً نساءً وأطفالاً.

انحرفت قليلاً، إلى حيث شاه زاد وجماعته، بعصافيرها التي بدأت بالغناء فوقها.

تعجب الأهالي من منظر الفزاعات التي حملت العصافير الصغيرة فوقها وانطلاقتها الهائلة رغم انزراعها في الأرض راضية مرضية.

بدت عيون الأهالي مندهشة والفزاعات القادرة تخترق الصفين الهامدين من الأهالي إلى حيث يقف شاه زاد تماماً في منتصف الدائرة.

التقط بندقيته، رغم ارتباكه، من جديد وبدأ بإطلاق النار عشوائياً على جيش الفزاعات المتقدم.. حين نفد مخزينه ولى هارباً ولم يقبل. في ارتعابته تلك تعثر جاثياً ومن فوقه السكان الجدد الذين جلبهم يتساقطون صاغرين.

احصت القرية في تلك الغبشة قتلاها وجرحاها بيد أن الطفل الصغير الذي صرخ مفزوعاً بادئ الأمر لمح في تطلعه الأخير نحو الفضاء، حينما كان الجميع يرقبون الفزاعات تعتلي الجمع المكتوم، أن ريشات الطائر الزاهية اجتمعت من جديد وتشكل منبعثاً كمروحة على شكل نصف دائرة محلقاً إلى نجمة الريح البعيدة وقد فرد جناحيه للفضاء مارقاً من الغبشة الأولى نحو شمس جديدة والمؤذن فرغ لتوه..،

اللحم!

جسمه الممتلئ كأسطوانة دائرة يغطي كرسي مقعد سيارتي (الكورولا) ما ان يتحرك بضخامته حتى يصدر الكرسي أناته واستغاثته، ورغم هذا الجسم الهائل إلا أنه كان صاحب نكات مضحكة وبديهة حاضرة إضافة إلى كونه واسع الاطلاع والتجربة رمقته بنظرة فاحصة دون أن يشعر من سهم زاوية عيني اليسار كان هادئاً كطفل خرج من نوبة بكاء شديدة يبحلق في الفضاء بعيداً عن منظر الحصانين في الوادي الكبير ونحن نصعد العقبة طلوعاً وفجأة خرجت أصوات استغاثة المقعد انتفض بقوة:

- خفف السرعة! هذا الرادار شغال....

خفت السرعة إلى الحد المسموح به، ورجع الرجل إلى سابق هدوئه.

هبطت السيارة باتجاه البستان ولاح لنا قصرها المنيف دقائق قليلة ونصبح في بيتنا في سداب، قرية ساحلية فاتنة يندلع لسان ساحلها بين جبلين جميلين، وترقد هي بين القصرين هانئة هادئة مطمئنة..، أصر هو نفسه على أن تكون العزومة التي وعدته بها، بمناسبة مجيء طفلي الأول بعد سبع بنات على ساق واحدة في بيتي قريب البحر، وأن تكون عائلية:

- فرصة جيدة ومناسبة نستثمرها في تعارف الأسرتين وتوثيق الروابط (كما قال)، والحق أنني لم أشأ أن أخالفه: أولاً لطبيعتي الموافقة على مبادرات الآخرين وتالياً لأنني لا أريد أن أحرمه من تحقيق رغبته في التمتع بالمناظر البحرية، ولأن تعارفنا في المقام الأول لم تمر عليه شهور فإنني فضلت كما قال هو توثيق هذا التعارف.

تعارفنا لم يأخذ وقتاً ذلك لأنه شخص اجتماعي لا يكف عن الدعابة والحديث طوال الوقت مما يدخله قلوب مستمعيه بسرعة.

كان قد نقل قبل ستة أشهر من فرع المؤسسة (السابع) إلى الرئيسي في العاصمة مسقط، وعيّن في قسم تصحيح الجودة الذي أعمل فيه مع خمسة من زملائنا ومدير يرأس قسم تصحيح الجودة وإعادة تأهيل الإنتاج تحت مسمى (مدير التدريب والموارد) كان السادس معنا في القسم وكنت أنا بمثابة نائب مدير تحت مسمى (نائب مدير برنامج تصحيح الجودة بالوكالة).

توطدت علاقته مع الجميع بسرعة فائقة ومعي شخصياً بسرعة لم أتوقعها أنا نفسي صاحب الحضور الضعيف اجتماعياً كانت زوجتي في موعد ولادتها حين فاجأني سمير:

- اطمئن يا أبا سعيد سترزق ولداً هذه المرة وستسميه (سعيداً) كما قلت لك...

- يسمع منك ربنا.

- طيب وإذا جاء ولد فعليك عزومة فاخرة.

- موافق موافق وفي أي وقت ومكان تشاء.

فاجأني أمس الخميس بأنه لن يذهب وأولاده إلى البلد هذا الأسبوع، وبأنه وقت الدين المنسي عليَّ قد طل موعده وأن غداً الجمعة سيتغدى و أولاده معي، وكعادة مفاجأته التي لا تنتهي ولا تنقطع افقنا على صوت جرس الباب وهرج عياله في الصباح الباكر.

كان لابد من ضيافة محترمة لصديق عزيز وزميل محترم فالسمك والدجاج ليسا من فضل الضيافة هي مجرد مكملات مع رأس الغنم الضيفة الرئيسة (أصرت زوجتي على ذلك) وأصر صاحبي أن اصطحبه في رحلتي إلى الملحمة التي أتعامل معها من سنوات طويلة.

كانوا ثلاثة أخوة: محمد سراج الدين وهو الأخ الأكبر، ومحمد فرقان وهو الأوسط وصاحب القول الفصل، والأصغر محمد تقي الدين كان هذا الأخير سافر ليقيم حفل زواجه في مدينته البعيدة.

عرفت الأخوين على سمير وعرفته عليهما تحدث معهما، وكأنه يعرفهما منذ سنوات خلت ذهب محمد فرقان لتحضير بعض الطلبات لزبائن آخرين وبقي محمد سراج الدين يقطع اللحم ويتحاور مع زميلي الذي استغل فرصة مغادرة الشقيق الآخر فقال غامزاً إياه من قناة ضعفه:

- مسكين أنت الكبير محمد سراج الدين، وهذا أخوك الأصغر يأمر وينهى على كيفه في المحل كأنه أرباب..

- مو يسوي أنا أرباب..

- كيف أيش تسوي؟ لا ترضى! لاتخليه يضحك عليك..

- يعني أيش يسوي "مسلا»؟

- يعني مثلاً أنته أمرّه، كون أنت الأقوى..

- هذا كله واحد! ما فيه مشكلة أرباب سمير

- كيف ما في مشكلة فيه مشكلة.. إذا هوه أرباب أنت عامل.. أكيد يأخذ أكثر منك فلوس.. صح؟

- أيوه «سحيح».

- والحين في بلادكم .. كم عندك، وكم عنده؟

- أوه أرباب هذا محمد فرقان في عمارة وفي دكاكين ومزرعة في البلاد.

- وانته أيش عندك؟

- دكان واحد صغير في ولد مال أنا يشتغل فيه.

- شوف حتى ولادك يشتغلوا مسكين انته محمد سراج الدين.. كم ولد عندك؟

- اثنين ولد خمسة بنات..

- و أخوك؟

- عشر ولد وسبعة بنات

- خير إن شاء الله عشرة أولاد..

- أيوا أرباب: محمد فرقان زوجتين في موجود.

- شفت قلت لك كله من فلوس اللحم:

عنده زوجتين، وعمارات ودكاكين ومزارع وانته مسكين يعطيك كم بيسه.. لا تخليه يتهنأ.. لازم تكون أنته أحسن منه..

- لكن هذا أخو مال أنا وبعدين هو في منيه قبل أنا.. وبعدين هوه يسوي فيزه مال أنا..

- لكن هذا شقاك ما يجوز تتنازل عن شقاك

كان محرضاً كبيراً، لم أصدق ما سمعته وما رأيته منه قلت بنفاد صبر:

- حرام عليك يا سمير تؤلب الأخوين على بعضهما

- أنت لا تعرف شيء خليك منهم.. قال بحدة، وأضاف مخاطباً العامل:

- ما ترضى أبدا بهذه القسمة؟ زين؟

- زين! زين! أرباب!، وبغضب انهى تقطيع كامل اللحم واخذه إلى السيارة كانت عيناه حمراوان يداري بكاء مكتوماً استطاع سمير أن يحرك فورة غضبه وحقده وحسده ضد أخيه.. دعوت الله أن يستر من الآتي...

انزلقت السيارة بنا على الطريق المرتفع عن نادي اليخوت، وباتجاه بندر الجصة وقبل أن نصل محطة بترول سداب تذكرت فقط: جلسات سمير الطويلة مع المدير وتقدير الكفاءة الذي سلمني إياه المدير العام بتقدير متواضع هذه السنة لأول مرة منذ سنوات كان تقديري فيه إمتياز مع عبارات تشجيع وترشيح للترقية ولمناصب قيادية..

الفهرس

ت	العنوان	ص
1	وردُ اليتامى	5
2	حمامة بيضاء	8
3	في بعض ما شتتته سيرتهما الأولى	10
4	ما الذي أحبه.. ما الذي يكرهه؟!	14
5	المشجب!	23
6	ما كتبه قاصٌ مغمور	30
7	حيواتٌ تنقضي	35
8	بنَفَسٍ واحدٍ تصِلُ الملجأ	44
9	رجل المطر	49
10	ملاحظة الرجل البسيط التي لم تعبر	53
11	النهاية لم تكن هكذا	58
12	سريجا حلم الانعتاق	61
13	لم يكن قانونيا	65
14	الفراشات	68
15	ظهيرة قرر ذلك	73
16	....	77
17	أمكنة العويل والفرح.. أو الحكاية إلى الياء	83
18	سقطة الحلم	94
19	اللحم	97

إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمد بن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبوزيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة فن المسبع	شعر	خميس بن جمعه المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة . التغرود	شعر	خميس بن جمعه المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	الشاعر الكوري: تشو أوهيون ترجمة/ أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان
13	الديك	رواية	سالم الجابري
14	رفرفة (ط 2)	قصص	بشرى خلفان
15	نوارس الحكايات	قصص	محمد بن سيف الرحبي
16	حدود المشاوير	شعرشعبي	محمد الراسبي
17	اشكاليات الشعر العربي	دراسات	رقية بنت سيف البريدية
18	القافر	رواية	د. خالد الكندي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

1	لعيني ديالى	نصوص	محمد بن حبيب الرحبي
2	الخيمة ومفاتيح الحظ	مسرح	عزة القصابية
3	لآلىء عربية	مقالات	ناصر بن حمود الحسني
4	بين قدرين	رواية	رأفت ساره
5	تحت المطر	مقالات	خالد بن علي المعمري
6	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد الفطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي
3	نظرية قدامة	دراسات	قاسم بن سالم آل ثاني

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

طبع بمطابع مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان

ورد اليتامى

راقب السرب من عليائه في القمم قطرات الماء المتساقطة من صوار ميراث الأجداد. يا إلهي! كيف يخضر الطحلب اليابس، ويورق منتفضا بنشوة متنفسا عناصر الماء؟

كان خماص بطونها، وعطشها يحدثانها بهذه الفرصة في أصيل لن يتكرر لها مطلقاً.

القرى النابتة كارخبيلات قديمة لم تطؤها أقدام الغزاة الرحل تتوزع بإهمال غريب فيما طائران يتقدمان سربهما، ويصعدن إلى الأعلى، والبعيد عن القرى المتبعثرة هروباً من ميراث أسلافها والأطفال الصغار الذين يتربصون بالطيور والفرح! حينها اكتشف صغار القرى أن العصافير هجرت ميراثها وقمتها.




78-99969-55-25-9
9996955259
بيت الغشام
للنشر والترجمة